من أدب الفكاهة

حواديت علي سالم



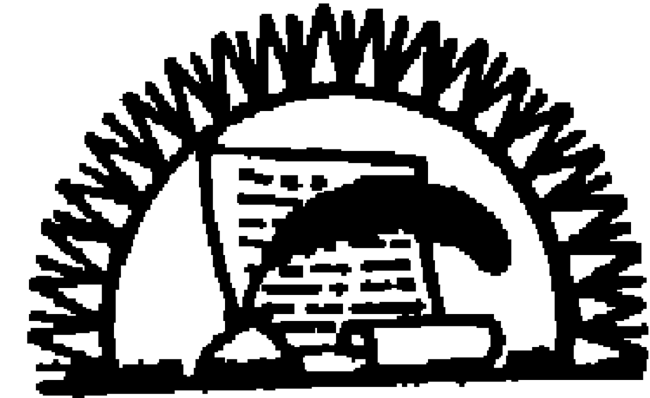
على سالم

حواديت
على
سالم

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مطابع ستار برس للطباعة والنشر
٤٠ ش المحولات الكهربائية - محطة المطبعة
الهرم ت : ٨٦٤١٥١



مكتبة مدبولي الصغير
٤٥ - البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين - القاهرة

علي سـالم

حواديت
علي
سـالم

مقدمة

أحاول جاهداً فى هذا الكتاب أن أقدم لك عدة ساعات من البهجة. أو على الأقل، أختطفك فيها من مرارة الواقع لعلك تنساه قليلاً وتشعر بقدر من الاسترخاء يساعدك على معاودة السير بقوة أكبر فى طريق التوتر الذى نسير فيه جميعاً.

لست أطمع فى أن يثير كتابى جدلاً أو إعجاباً، أنا فقط أريده مجرد محطة مريحة تقضى فيها وقتاً هادئاً ثم تواصل السير. إذا نجحت فى ذلك، فوالله سأسعد جداً، وأشعر بأننى قد أديت واجبى ككاتب وفنان تجاه ناسى وأهلى. لأننى أعلم علم اليقين أن البهجة تقوى عزائم أصحاب الضمائر وتبعد عنهم اليأس وتشعرهم بعذوبة الحياة فيدافعون عنها بإصرار أكبر.

كتاب كثيرون أشعرونى بالبهجة، وأنا أريد أن أرد لهم الجميل بأن أسعى بكل طاقتى لكى أكون واحداً منهم وأقدم لك نفس ما قدموه لى.

وأنا أشكرك حال شعورك بالبهجة وأنت تقرأ كلماتى، فستكون بذلك قد حققت لى هدفى.

وفى كل الأحوال حتى قبل أن تقرأ هذا الكتاب، أنا أشكرك بقوة لأنك اشتريته.

أما إذا كنت قد اقترضته من صديق، فسيشعرنى ذلك ببعض

الحزن لأنك ساهمت في تقليل نصيبي من دخله.

وهذا ما لا أرضاه لك ولا أقبله منك.

علـى سـالم

عصيان المواتير

في السرادق الكبير حيث احتشد الآلاف قال المسئول الكبير فلان الفلاني: حزبنا ليس علمانياً.

وبذلك وجه ضربة ساحقة للعلمانيين الأوغاد الذين ربما تكون نفوسهم المريضة قد سولت لهم أن الحكومة قد تكون علمانية. كان لابد من إيضاح موقفه بذلك الحزم وتلك الصراحة أمام الجميع ليكون كل شخص في هذا البلد على بينة من أمره. صفق زملاؤه لجملته كثيراً فقد أدركوا على الفور أنه صرح تصريحاً هاماً، وذلك من الطريقة الحاسمة القاطعة التي قال بها جملته. ولقد كان من الممكن ألا يصفقوا، وكان من الممكن أن تمر هذه الجملة مر الكرام دون أن يلتفت لها أحد إذا قيلت بطريقة عابرة وذلك لسبب بسيط، أنهم لا يعرفون معنى كلمة علمانية، لم تمر عليهم ولم يسمعها أحد منهم من قبل. ولكن بعضهم كان يدرك على نحو غامض أن العلمانية لها صلة بالإلحاد. غير أن هذه المعرفة الغامضة تأكدت الآن على نحو واضح بتصريح فلان الفلاني، فمن غير المعقول أن يتبرأ الحزب

من شئ إلا إذا كان ضاراً جداً، بل ضاراً جداً جداً، لأن الحزب يسمح عادة بالأمور الضارة فقط ولا يتبرأ منها.

عقب انتهاء اللقاء خرج صاحبنا من السرادق ففوجئ أن سيارته الشبح ليست موجودة بجوار السرادق. نظر مبتسماً فى تساؤل إلى أحد مرافقيه فصاح المرافق: عربية الباشا فين؟

تحولت صيحته على الفور إلى عشرات الصيحات والنداءات: فين سواق الباشا، عربية الباشا فين؟.. يا اسطى عبده.

فوجئ الجميع بالسائق يأتى مهرولا، جارياً على قدميه بوجه أصفر وقد استولى عليه الفزع، فكر الجميع فى الاحتمال الوحيد الواجب التفكير فيه فى هذه الحالة، وهو أن السيارة سرقت. هذا فعلاً ما فكر فيه فلان الفلانى، غير أنه سيطر على إحساسه بالقلق وتكلم مع السائق برقة، تلك الرقة التى يجيدها كبار المسئولين مع أصحاب الوظائف الصغيرة.

– العربية فين يا اسطى عبده؟

– واقفة ورا الصيوان ياسعادة الباشا.

– ماجبتهاش ليه؟

– مش عاوزه تيجى ياسعادة الباشا.

– نعم..؟ عطلت؟

– لا ياسعادة الباشا.. مش عطلانة.. مش عاوزة تيجي.

وهنا تقدم مسئول مجموعة الأمن الخاصة بفلان الفلانى ونظر إلى السائق نظرة مرعبة قائلاً: إنت شارب حاجة ياجدع انت؟

وهنا ازداد فزع السائق فقد أدرك بخبرته الطويلة مع السلطة (٧٠٠٠ سنة) أنه على وشك أن يدخل فى متاعب حقيقية، فصاح فى توسل: لا والله ياسعادة الباشا.. أنا فايق وعمرى ماشربت حاجة..

قال فلان الفلانى برقة وهدوء أعصاب يحسد عليها: سيبهولى ياسيادة العميد.. تعالى يا أسطى عبده.. مالك يابنى؟ فيه إيه؟.. مالها العربية؟

– الموتور مش عاوز يدور.

ضحك فلان وقال: ومالك مرعوب كده.. اتصل بالإدارة يبعتولك ميكانيكي.

– ياسعادة الباشا.. الموتور هو نفسه اللى مش عاوز يدور.. يعني هو سليم.. بس مش عاوز يدور، بيقول إنه مش عاوز يدور.

– بيقول؟؟!!

– أيوه ياسعادة الباشا.. الموتور اتكلم.. اتكلم وقال أنا مش دائر.. تعالى حضرتك شوف بنفسك.

من الطبيعي أن كل الموجودين استولت عليهم رغبة صادقة فى أن ينهالوا عليه صفعاً وركلاً ولكنهم تمالكوا أعصابهم وساروا خلفه إلى المكان الذى تقف فيه السيارة وكل منهم يفكر فى العقاب المناسب الذى سيوقعه بذلك السائق الذى تناول حتماً صنفاً رديئاً من المخدرات. فتح السائق السيارة فى وجل وعلى الفور انبعث صوت معدنى غريب من داخل السيارة يقول: أنا موتور السيارة الشبح ورقمى كذا.. أتكلم.. وعلى الجميع أن يسمعنى.. امتنعوا عن التعليق.. افتحوا آذانكم، عندما تكونون على استعداد لسماعى، أعلنوا ذلك بوضوح.

وهنا ضحك العميد رئيس مجموعة الحرس الذى قضى فترة طويلة فى المباحث وقال: يالها من حيلة طريفة، إنه شريط كاسيت وضعه واحد من المعارضة خلسة داخل جهاز الكاسيت.

قال السائق: تصورت ذلك فى البداية، ولكنى لم أجد شريطاً فى الجهاز.

وهنا قال أحد المرافقين الذين سبق لهم العمل فى وزارة البحث العلمى: لا.. ليس شريطاً، هذا الموتور مركب فيه كمبيوتر، والبرنامج المركب فى الكمبيوتر متكلم.. بمعنى أنه يعبر بالصوت عن أى خطأ أو عطل فى السيارة.

وهنا قال الموتور مرة أخرى: ياسادة، الكمبيوتر فى هذه

السيارة صامت ولا يوجد شريط كاسيت.. أنا الموتور الذى أتكلم، أنا الموتور الذى أتكلم، إذا كنتم على استعداد لسماعى أعلنوا ذلك بوضوح ولا تضيعوا وقتى.

همس مندوب الأوقاف: معجزة.. ولكن أليس من حسن الطالع أن تحدث هذه المعجزة بمناسبة تشريفك لهذا الاجتماع؟

مرة أخرى قال الموتور بنفاد صبر: هل ستسمَعوننى؟

فكر فلان الفلانى عدة لحظات قبل أن يتخذ قراراً، إذا تسرب خبر أنه دخل فى حوار مع الموتور فقد تسخر منه جرائد المعارضة لأنه تكلم مع الحديد، وإذا رفض الحوار مع الموتور فستسخر منه جرائد المعارضة بوصفه غير ديموقراطى يرفض الحوار مع الحديد، ولكنه حزم أمره وقال بأدب: خلاص ياجماعة.. نسكت علشان نسمعه.. اتفضل ياسيدى.. اتكلم..

فرد الموتور: من فضلك كلمنى بأدب، أنا موتور شبح، ولست موتور سيارة فيات.. قل اتفضل ياسيدى الموتور.

- حاضر، اتفضل ياسيدى الموتور.

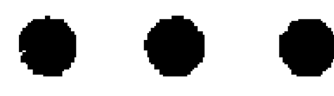
- إسمع كل الناس.. إسمع كل الناس.. أنا موتور السيارة الشبح ورقمى كذا، وتاريخ صنعى كذا.. أعلن ما يأتى.. أنا موتور علمانى، مبنى على العلم وثمرة للعلم، صنعنى العلماء، ضيعوا أعمارهم فى التعرف على قوانين الكون الثابتة

واكتشافها، وقوانين الكون الثابتة هى قوانين الله سبحانه وتعالى.. هى العلم، هذا العلم الذى تتصورون أنه من صنع البشر هو من صنع الله.. والعلمـاء هم أقرب الناس إلى الله، لأنهم أكثرهم استيعابا وفهماً لقوانينه، وكلمة علمانية تطلق على طريقة التفكير التى تنبنى على التجربة والمشاهدة والاستنتاج، وليس على الأوهام والكلمات الغامضة التى يمكن تفسيرها على أى وجه.. أنا موتور علمانى، صنعنى علماء بناء على نظريات علمية. كيف تنتظرون منى أن أدور لكى أجر سيارة يركبها شخص يتبرأ من العلمانية.. كيف تنكرنى ثم تركبنى، لن أدور، اتفضل اركب شيئاً غيرى.

شعر فلان الفلانى بالغضب وتفوه بألفاظ عدها الموتور إهانة فلزم الصمت. أوقف مسئول الحراسة سيارة تاكسى، ولكن موتور الشبح استطاع بطريقة غير معروفة أن يصدر أوامره لموتور التاكسى أن يتوقف فتعطلت السيارة فعلاً. شعر فلان بالرعب، إن الموتور لا يتكلم فقط، إنه يصدر أوامره للمواتير الأخرى، يالقوة العلم، الله يخرب بيت السيارة الشبح على يوم ماعملوها، لقد قالوا لنا إن موتورها قوى، ولكن لهذه الدرجة؟!

حدث ما ليس منه بد، أحد المخبرين الأذكياء اختفى لدقائق وعاد ومعه عربة كارو وجلباب أبيض. ارتدى فلان الفلانى الجلباب وساعدوه على الصعود إلى العربة، ثم جلس بجوار العربجى. على

آخر لحظة ناوله أحد الواقفين طاقية بيضاء فارتداها، لايجب أن يتعرف عليه أحد، غطت الطاقية أذنيه وجزءاً من عينيه وسارت العربة.



العميد "عادل عزت" هو قائد مجموعة الحرس الخاصة بالسيد فلان الفلانى، وهو رجل أمن محترف ومثقف، قضى فترة طويلة فى المباحث وحصل بامتياز على فرقة حراسة شخصية هامة، ولما كان يكره العمل فى المكاتب، لذا رحب بأن يعمل رئيساً لمجموعة الأمن الخاصة بفلان الفلانى لما فى ذلك من مزايا عديدة. عندما حدثت حركة "العصيان" من موتور المرسيدس الشبح ثم تحريضه لموتور التاكسى الفيات على التوقف، عندما حدث ذلك بدأ فى التفكير من منظور أشمل. أخذ تفكيره يقفز إلى الأمام بسرعة، العلم فى مصر لا يجد من يدافع عنه، سكت العلماء عجزاً أو خوفاً أو قرفاً أو ترفعاً. بينما الآخرون يهاجمون العلم جهلاً أو نفاقاً أو حرصاً على مكاسب خاصة، أو من أجل كسب ديماجوجى رخيص. فكانت النتيجة أن تصدت "الأشياء" التى أبدعها العلم للدفاع عن نفسها فى محاولة أخيرة ومرعبة لتذكير الناس بنعمة العقل والعلم. ولأنه يتمتع بالخيال السياسى فقد أدرك فى لحظة أننا مقبلون على أخطر المراحل فى حياتنا. من المؤكد أن مرحلة العصيان المواتيرى ستعقبها مرحلة من العمل

الإيجابى. الموتور الآن يكتفى بالكلام والإمتناع عن العمل. ماذا سيحدث غداً؟ أليس من الجائز أن تتحرك سيارة بلا سائق وتهاجمك فى الشارع، أو يهاجمك موتوسيكل لا يركبه أحد، أو يركبه شخص له نفس خصائص الآلة. لقد تحول قطاع كبير من البشر إلى آلات صماء، فلم يدهشنا ذلك؟ لماذا الدهشة عندما تكتسب الآلة خصائص البشر، وتعترض، وتتكلم وتتوقف عن العمل؟

دارت هذه الأفكار برأسه فى سرعة البرق بينما العربة الكارو تتحرك من أمامه وعليها فلان الفلانى جالساً بجوار العربجى. ولكنه انتزع نفسه من أفكاره بعد أن تبين أنه على وشك أن يهمل فى أداء واجبات وظيفته. مهمته هى أن يقوم بحراسة فلان الفلانى، هل سيتركه يسير بالعربة الكارو فى شوارع القاهرة مع ما فى ذلك من مخاطر؟ ماذا سيفعل هو ورجاله؟! بالتأكيد سيعطى موتور الشبح اللعين الأوامر لموتور سيارة الشرطة "البيچو" بالتوقف، مؤكد أنه سيطيع أوامره بسعادة. لأنه أصلاً ضعيف و "مِفَوت" ويدور بصعوبة. وقد يطيعه لأسباب طبقية. من الطبيعى أن موتور البيچو القديم يشعر بالضآلة والانسحاق أمام موتور الشبح وقطعاً سينفذ أوامره على الفور.

ماذا يفعل؟ هل يحيط بالعربة الكارو هو ورجاله ويسيرون معا على الأقدام إلى المعادى؟ ماذا سيكون رد فعل الناس فى

الشــوارع؟ هل يتـصل بالإدارة؟ إن شـرح مـاحدث يتطلب عـدة ســاعـات، وقـد يتــصــور رؤسـاؤه أنه أصـيب بالجنون. لابد من التصرف بسرعة، صـاح: لحظة واحدة يافندم.. استنى ياريس.. أرجوك يافندم، إدينى فـرصـة أخـيرة أتفـاهم فـيـهـا مـع مـوتور السيارة الشبح.

توقفت العربة ورد المسئول: اتفضل.. بس أرجوك.. بسـرعة، أريد الانتـهـاء من هذه المهزلة فوراً، هـل وصلنا إلى الدرجـة التى تفرض فيها الآلات علينا ما نقول وما لانقول؟

طلب العمـيد من الأسطى عبده العيسـوى السائق أن يرافقه إلى حيث توجد السيارة، طلب منه أن يفتح "كبود" السيارة ففتحه بحــرص ورقــة. وهنا قــال الموتور بحــسم: إننى أحـذركـمـا من الإقتراب منى والعبث فى أجزائى.. أو معاملتى بخشونة.

وهنا طلب العميد من الأسطى عبده أن يبتعد ويعود للجماعة، حيث أن لديه حديثاً خـاصـاً يجريه مـع الموتور. اقـترب العـمـيد من جسم السـيارة وانحنى على الموتور وقـال له هامسـاً فى رقة: لقد رفـعت عنك الغطاء لأن الجو حـار، ولسـبب آخـر، أريد أن أشـعـر أننى قريب منك وأنت قريب منى، حـاش لله أن أعبث بأجزائك أو أعاملك بخشونة، إننى أعرف حـدودى جيداً ياعزيزى الموتور ولا أتجـاوزهـا وأعـرف أن مـرتبى هـو ٤٠٠ جنيـه شـامل كل حـاجـة

وأعرف أن ثمن السيارة التى تجرها سعادتك حوالى مليون وثلاثمائة ألف جنيه وهو مبلغ يساوى كل مرتبات زملائى فى وزارة الداخلية، فهل تعلو العين على الحاجب؟.. على العكس من ذلك.. أنا أحترم شجاعتك وأقدرك، فقد قلت للرجل ما يخشى الجميع إعلانه.

- أشكرك.

- إسمح لى أن أقدم لك نفسي، أنا العميد عادل عزت من إدارة الحراسات الخاصة، وأنا أيضا مثلك أحترم العلم والعلمانية، وأؤكد لك أيضا أن فلان الفلانى يحترم العلم والعلمانية، بدليل أنه حاصل على درجة علمية.

- لماذا تتكر إذن للعلم والعلمانية؟

- هو لم يتنكر لهما؟

- لقد سمعته بنفسي.

- هذا ما نسميه ياعزيزى بالتصريح الوزارى، يعنى كلام كده وكده.

- عفواً، أنا غريب، قادم من المانيا.. وهناك لا يعرفون معنى هذا التعبير.. ماذا تقصد بكده وكده..؟

- يعنى ينفع كده.. وينفع كده..

– هذا الذى ينفع كده وكده.. من المؤكد أنه لن ينفع كده.. ولا كده.

– أقصد ياعزيزى أنه كلام فك مجالس، أو "طق حنك" هو لا يقصد فعلا ما قاله.

– تعنى أن من حق بعض البشر – فى أعلى درجات السلطة – أن يقولوا كلاماً لايقصدونه بالفعل؟.. أمر غريب، كيف تفرقون إذن بين الكلام الذى كده وكده.. وهذا الذى ليس كده وكده..؟ لقد علمونا فى المصنع أن المواتير تتربط من صواميلها، بأى شئ تربطون أنفكسم؟

وهنا قال العميد وقد انتابه بعض الخجل: الواقع أن الإنسان بيتربط من كلامه.. الكلمات فعلاً هى صواميل الإنسان ولكن السياسة أحياناً..

وهنا قاطعه الموتور وقد اختلجت بعض أسلاك الأسبراتير بشدة: سيدى العميد، هات من الآخر.

وهنا قال العميد فى شبه توسل: من أجلى أنا وليس من أجل فلان الفلانى، أرجوك، ممكن تدور الليلة دى فقط لكى توصل الرجل إلى منزله؟ أنا أعمل ورجالى من عشرين ساعة متواصلة، ولدينا عمل فى السادسة صباحاً، والوقت الآن تجاوز منتصف الليل. أرجوك أريد أنْ أستريح.. فى الصباح أفعل ما تريد،

لاتغادر الجراج.

- سيدى العميد، كلماتك تدمى بوجيهاتى، وكاربراتيرى يشعر بالحزن و "الشرَقان" لصدق انفعالاتك.. المشكلة أن الكمبيوتر المركب فيّ مبرج على قوانين العقل والميكانيكا والرياضيات فقط.. مبنى على العلم.. والعلم ليس فيه عشان خاطرى.. ومع ذلك إكراماً لخاطرك، أنا موافق على الدوران بشرط ألا يركبنى هذا الرجل. سأدور فقط في حالة واحدة، أن يكون الركاب فقط هم مجموعة الحراسة.

- ولكن...

- ياسيادة العميد، اركب السيارة، اضغط على الزر السابع على اليمين، ستضئ أمامك لوحة وستقرأ جملة واحدة: "من ينكرنى لا يركبنى" أنا آسف، سأعجز عن الدوران إذا دخل هذا الرجل هذه السيارة.. أرجوك لا تضيع وقتك، لم يعد لدى ما أقوله.

فى تلك اللحظة جاء فلان الفلانى وهو يسير بخطوات عصبية سريعة. قال للعميد بانفعال: وصلت لإية؟

همس العميد فى أذنه: هو موافق على الدوران، بشرط أن تركبه مجموعة الحراسة فقط.

وهنا انفجر فلان الفلانى صارخاً: يعنى إيه!.. أركب أنا

الكارو.. وتركبوا أنتم الشبح.. إيه قلة الأدب دى؟

رد العميد بانفعال: والله يافندم لا احنا عاوزين نركب الشبح ولا نركب العفريت.. إحنا عاوزين نروّح سعادتك ونروّح بيوتنا ونخلص من المشكلة دى اللى حضرتك تسببت فيها.

رد فلان معتذراً: لا أقصدك.. أنا أقصد الكلب ده..

وهنا حدث شئ غريب (الجزء الخاص بهذا المشهد منقول حرفياً من التقرير الذى رفعه العميد عادل عزت للإدارة). قال الموتور باللغة العربية الفصحى: أنت أكثر وسامة فى الجلباب الأبيض والطاقية ياسيدى..

فرد عليه فلان بأن أغلق "كبود" السيارة بعنف وكأنه يريد أن يحطم السيارة ثم أخذ يخبط بكفه عليه وعلى الرفارف ويفتح أبواب السيارة وكأنه يريد أن ينتزعها من مكانها ثم يغلقها بقسوة، وهو يصيح: بتقول إيه موتور ياكلب ياإبن الكلب.. ملعون أبو شبح أمك.. ده انت جزمة، أى موتور عربية سوزوكى ربع نقل أشرف وأجدع منك.. إنت فاكر نفسك مين؟ ده أنا أولع فيك دلوقت.. أنا يهمنى؟!.. آه أنا ضد العلم والعلمانية والعلمانيين.. عاوز حاجة؟

رد الموتور بنغمة يغلب عليها طابع "السلانسيه" ولا حاجة.. مش عاوز حاجة.. حضرتك اللى عاوز تتكرنى وتركبنى.

فقد فلان أعصابه تماماً فقال: كده.. طب هه.. ثم فتح الموتور، ومد يده ليخلع سلوك الكاربراتير وفجأة وقبل أن تصل يده إلى الأسلاك دار الموتور فجأة محدثاً صوتاً مرتفعاً "أمبليه" وكأنه على وشك أن يحترق ثم أحدث عدة فرقعات هائلة من الشكمان وصاح بصوت رهيب: إبعد عني.. إبعدَ إوعى تمد إيدك عليّ.

فوجئت بالسيارة تتراجع إلى الخلف ثم تندفع للأمام وكأنها تريد أن تصدمه فصحت: أرجوك.. أرجوك ياعزيزى الموتور.. عشان خاطرى.. عشان خاطرى أنا، ماتوقعنيش فى مصيبة.. ماتودينيش فى داهية..

فتوقفت السيارة ثم قامت بلفة كاملة. وابتعدت لتتوقف فى ركن بعيد. ذهبت إليها واعتذرت للموتور بعدة كلمات رقيقة. كان فى حالة عصبية سيئة. عرفت ذلك من سماعي بوضوح لصوت المياه وهى تغلى فى الرادياتير.. تصرف الشرطى السرى مصطفى شبانه بطريقة ذكية، أحضر لنا عربة كارو أخرى وجلاليب وطواقىّ (أرجو صرف مكافأة له). سارت العربة التى تقل سيادته وعربتنا خلفه. اتصلت بالعقيد الكفراوى مسئول أمن مجموعة قصر النيل. بجهاز التوكى ووكى، طلبت منه أن يبلغ باللاسلكى كمين كوبرى أكتوبر وبقية الكمائن فى طريقنا بعدم التعرض لعربتى كارو يركبها أشخاص يرتدون الجلاليب والطواقى. إلى أن وصلنا المعادى، وأمام العمارة التى يقطنها

سعادته، وجدنا حشداً من البشر.

نترك الآن تقرير العميد عادل عزت ونكمل الأحداث مستعينين بدفتر أحوال شرطة المعادى "فى حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، خرج بواب العمارة ٨٥ بشارع ٧٧ مندفعاً فى هستيرية وهو يصرخ: عفريت.. عفريت.. عفريت فى الأسانسير. ثم سقط مغشياً عليه، تجمع حوله المارة وأحضر له صاحب الكشك المواجه للعمارة بعض الماء ورشه على وجهه فأفاق وقال: عفريت فى الأسانسير.. بيقول.. أوعى الباشا يركبنى.. (يقصد فلان الفلانى) خليه يطلع على السلم.. الكارثة أن فلان الفلانى كان يسكن فى الدور العشرين.

لم يهتم العميد عادل عزت قائد مجموعة الحراسة الخاصة برفض الأسانسير أن يركبه فلان الفلانى، إن واجبه فقط هو أن يحرسه من البيت إلى مقر العمل ثم من مقر العمل إلى البيت. لا شأن له بما قد يحدث له داخل العمارة، هناك مجموعة حراسة أخرى مكلفة بذلك، لذلك سارع باستدعاء المسئول عنها وقال له: اتفضل يابنى، استلم، أهو، صاغ سليم.

قال ذلك ثم اختفى ورجاله على الفور.

هناك فى الدولة، أى دولة وكل دولة، مجموعة من البشر وظيفتهم الوحيدة هى إحاطة القيادة السياسية علماً بما يحدث

الان وبكل الاحتمالات والتوقعات والتنبؤات لما سيحدث بعد لحظات أو أيام أو شهور أو سنوات، والقيادة السياسية حرة بعد ذلك فى اتخاذ القرار المناسب، هذه المجموعة أعضاء فى مكتب سنطلق عليه لأسباب فنية اسم "مكتب الأذكياء" فى تلك الليلة وبعد عصيان موتور الشبح بلحظات، اجتمع أعضاء المكتب لدراسة الحالة وإصدار التوصية اللازمة. فى البداية قرروا اقتراح الإعلان عن خطة جديدة للتقشف داخل الحكومة يتم بموجبها التخلص من كل السيارات المرسيدس الشبح والزلمكة بكل أنواعها ذات المؤخرات التى يطلق عليها اسماء غريبة. وبذلك يضربون عصفورين بقرار واحد، إسعاد الرأى العام والإحباط الفورى للمخطط المواتيرى، ولكن هل سيصدق الرأى العام هذا الكلام؟ لقد رفعنا التليفونات من سيارات الوزراء من قبل بهدف معلن هو التقشف وعرف الناس بعد ذلك أننا رفعناها لأنه يتم رصد المكالمات منها بسهولة، لا داعى للحديث عن التقشف، لن يصدقنا أحد.

بينما كانوا غارقين فى النقاش وصلهم على "الفاكس" خبر توقف موتور أسانسير العمارة، فاكتشفوا أن المشكلة أكبر من ذلك بكثير. قال واحد منهم: أيها السادة، نحن مهددون بالعودة للقرن العاشر.. إنه إيدز ميكانيكى سريع الانتشار، أريدكم أن تتخيلوا كل مواتير البلد وقد توقفت عن الدوران. لست أتكلم عن

مواتير الغسالات والثلاجات فقد عشنا بدونها سنوات طويلة، فكروا في المواتير الضخمة الموجودة فى محطات توليد الكهرباء والمياه، الحل الوحيد فى رأيى أن يعتذر فلان الفلانى علنا لكل المواتير، ويقول إنه لم يكن يقصد العلمانية من العلم ولكن من العالم.

– هذا الكلام قد يقنع بعض الناس ولكنه لايقنع موتور أصغر ماكينة حلاقة، ماذا يعنى أن يتبرأ حزب أو إنسان من العالم؟ هل يعيش فى العالم الآخر؟

– أرجوكم ياسادة، الوقت يمضى بسرعة، لا يجب أن نفكر فى حل المشكلة الآن بشكل كلى، أريدكم أن تفكروا فى مشكلة الليلة، لابد من حل.

طرحت فكرة أن ينام فلان الفلانى عند أخته التى تسكن الدور الأرضى فى ڤيللا قريبة، ولكن هذا معناه الاستسلام والرضوخ لموتور الأسانسير، وقد يترتب على ذلك تضامن كل أسانسيرات المعادى معه، لابد أن ينام الرجل فى شقته مهما كان الثمن. ولكن هل سيتحمل قلبه صعود عشرين طابقاً؟ هل يرسلون مجموعة من الرجال الأشداء يحملونه إلى الشقة؟ أين الرجال الأشداء الآن؟ وما رد فعل ذلك على سكان العمارة وأسرة الرجل؟

ولكنهم فى النهاية استطاعوا فى لحظات وضع خطة محكمة

لصعود الرجل إلى شقته دون أن تلفت أنظار أى مخلوق. على الفور انطلقت مجموعة من رجال الشرطة وحاصرت الحى بأكمله، أطلقت عيارات نارية بكثافة فى الهواء وبعض قنابل الصوت المرعبة بالإضافة لبعض قنابل الدخان، قال ضابط شرطة فى الميكروفون. نحن نطارد بعض المجرمين.. كل واحد يرجع بيته، كل واحد يرجع شقته، لا أحد يطل من النافذة فقد يصاب بطلقة طائشة، أحكموا إغلاق النوافذ والأبواب.

ظل يردد هذا النداء وهو يطوف بالحى بسيارة الداورية، على الفور خلت كل شوارع المنطقة من البشر، وبدأ تنفيذ الجزء الثانى من الخطة، ركبت عدة سقالات خشبية ضخمة فوق السطوح، مزودة بعدة بكرات كبيرة قوية، ورفع الرجل بالحبال بعد أن جلس فى كابينة من الألومنيوم الصلب أشبه "بالسَبَت". إحضار هذه الكابينة أخّر العملية ساعة كاملة فقد كانوا جاهزين "بقفة" كبيرة رفض فلان استخدامها.

تمت العملية بسرعة مدهشة، ونزل الرجل سالماً فى بلكونة شقته بعد لحظات من الرعب، الواقع أنه لا أحد من سكان المنطقة شاهد ما حدث فقد حرصت المجموعة المنفذة، على إطلاق النار وقنابل الصوت كل عدة دقائق. فلم يجرؤ أحد على أن يطل من النافذة، ومع ذلك فقد استطاع أحد السكان أن يلتقط فيلماً بالفيديو لكل ما حدث بكاميرا حساسة، وعرضه أمام بعض

الجيران ولكن الفيلم اختفى بعد ذلك فى ظروف غامضة، فقد اقتحمت شقته وسرق منها هذا الفيلم فقط، ولكن هذه قصة أخرى قد نتعرض لها فى حينها.

السيدة فلانة الفلانية هى زوجة فلان الفلانى، وهى حاصلة على درجة الماچستير فى العلوم السياسية والاقتصاد من جامعة "ميتشجان".. وهى سيدة مشهود لها برجاحة العقل والأدب الجم، علاقتها بجيرانها وصديقاتها وزوجها طيبة، غير أنها أحياناً تختلف معه بشدة فيما يدلى به من تصريحات فهى دارسة ممتازة للتاريخ وتحترم الكلمات واحترامها للكلمات لا يرجع لدراستها بقدر ما يعود لتربيتها الحسنة، فقد كان والدها رجلاً فاضلاً يحتل منصباً هاماً قدم من خلاله الكثير لبلاده، وكثيراً ما كان يقول لها: إذا كان الكتاب والأدباء يزنون كلماتهم بميزان الذهب، فعلي رجل السياسة أن يزن كلماته بميزان الماس.

شعرت السيدة فلانة بالرعب عندما سمعت الطلقات والانفجارات والتحذيرات. جمدت فى مكانها لاتجرؤ على الحركة، بغريزة الأنثى والزوجة شعرت أن زوجها يتعرض لخطر كبير. وبعد حوالى الساعة، التى مرت عليها كأنها دهر طويل سمعت صوتاً يقول فى الميكروفون انتهى الخطر، قبضنا على المجرمين، أسفين للإزعاج، الحالة طبيعية الآن، شكراً لتعاونكم.

ثم صوت سيارات تبتعد، تحركت من مكانها بلا هدف وفجأة سمعت طرقاً على زجاج شرفة البلكونة من الخارج هل كانت الشغالة طول الوقت محبوسة فى البلكونة؟ عاد صوت الطرق.. مين؟.. إفتحى يافلانة.. أنا فلان.. شعرت للحظات بالحيرة والاضطراب ولكنها مدت يدها بسرعة وفتحت الشرفة فوجدت زوجها الذى دخل الصالة ثم انهار جالساً على أقرب مقعد فى إعياء.

لنترك الآن مشهد السيدة فلانة مع زوجها فسنعود إليه فيما بعد، ولننطلق بسرعة إلى حيث توجد السيارة الشبح وسائقها الأسطى "عبده العيسوى".. كان الأسطى عبده جالساً فى شرود وحيرة يتناول الشاى والمعسل على مقهى قريب وقد حرص على ألا تغيب السيارة الشبح عن عينيه. وفجأة لاحظ أن السيارة تتحرك، وجمد الدم فى عروقه، هل ستهرب؟ ولكنه فوجئ بها تأتى ببطء فى اتجاه المقهى وتتوقف أمامه. واحد من رواد المقهى تنبه إلى أن السيارة ليس بها سائق فأغمى عليه. واحد آخر علق على ماحدث بعينين نصف مغلقتين: أما حمار صحيح.. طبعاً بتمشى من غير سواق، أمال اسمها الشبح ليه؟

أدرك الأسطى عبده أن السيارة تريد أن تحدثه فنهض على الفور وفتح الباب ودخل خلف الدريكسيون وبكل أدب قال: مساء الخير يانوق، لا شأن لى بخلافك مع الباشا، أنا أريد أن أحافظ

عليك وعلى السيارة.. اسمح لى أن أروّحك الجراج.. قد يمر أحد الأوغاد على رفرفك بمسمار..

فدار الموتور دون أن ينبس ببنت كاربراتير، وفى طريقهما إلى الجراج فى المعادى دار بينهما حوار ودى طويل. سأله عبده عن معنى كلمة علمانى التى سمعها للمرة الأولى فى حياته فى هذه الليلة فأجابة الموتور: يا اسطى عبده.. ماذا تفعل عندما تريد أن تسير بالسيارة؟

- أدوس على البنزين.

- وماذا تفعل عندما تريد أن تتوقف؟

- أدوس على الفرامل.

- حسناً أنت علمانى إذن، هذه هى العلمانية، أن تفعل ما تمليه عليك القواعد التى عرفها البشر بعد مشوار طوله ملايين السنين، هذه هى المسألة باختصار، وهى مهمة صعبة للغاية تتطلب المعرفة والنبل وعدم النفاق والقدرة على العمل الشاق. أما عندما تكون غير علمانى فستلوث النهر وتقتل الأسماك فلا تجد الناس ما تأكله أو تشربه، وستبنى مدناً فى الصحراء تسكنها الأشباح وتصب البنزين على النار لتطفئها وتضع التراب على الجروح لتشفيها وتعالج الأمراض بالأحجبة والتعاويذ، العلمانى يا اسطى عبده هو الشخص الذى يتقن مهنته ولا يكذب على

نفسه وعلى الآخرين. العلماني شخص يحافظ على هذه الحياة العظيمة الجميلة ويحرص فى كل لحظة على أن يكتشف قوانينها وظواهرها لأنها من صنع الله سبحانه وتعالى، والوعى بها إيمان ما بعده إيمان.. العلمانى يا أسطى عبده بلغة أولاد البلد هو الراجل الجدع.

منذ تلك اللحظة توطدت علاقة الأسطى عبده بالسيارة ونشأت بينهما صداقة قوية لدرجة أنه طلب من سايس الجراج ألا يقترب منها لأى سبب. لأنه سيقوم بتنظيفها بنفسه.

وضع الأسطى عبده السيارة فى الجراج وصعد إلى شقة فلان الفلانى، رداً على سؤاله أخبره أنه جاء راكباً الشبح وصعد إلى الشقة بالأسانسير، منذ تلك اللحظة بدأ فلان يشعر بحقد هائل تجاه السيارة والأسانسير والسائق، بل وبدأ يكره كل شئ.

اختفت زوجته من أمامه. لتعود بعد لحظات ومعها كوب عصير ليمون، كان بالفعل في حاجة إليه، في غرفة النوم ساعدته علي خلع ملابسه وارتداء البيجاما، ألقى بجسمه على السرير بينما جلست هي علي مقعد قريب. كانت صامتة تماماً، لم تسأله عما حدث، مرت لحظات قبل أن يتكلم. حكي لها كل ما حدث في تلك الليلة الغريبة وفي النهاية قالت له بهدوء: هل تذكر اللحظة التي تم فيها تعيينك مسئولا كبيراً؟.. متى عينت بالضبط، هل عندما صدر

القرار بتعيينك، هل هو تاريخ نشر القرار، هل حدث ذلك عندك أبلغوك بالتليفون، متى كانت تلك اللحظة؟

- أنا آسف، لست أفهم السؤال.

- لا، أنت تفهمه، متى شعرت فعلاً إنك مسئول كبير؟

- عندما أبلغونى تليفونياً باختياري للمنصب.

- ألم يحدث بعد ذلك شئ له أهمية خاصة؟

- نعم، قابلت السيد الرئيس وكلفنى بالعمل.

- الحمد لله، أنت قلت جملة مهمة جداً، كلفك بالعمل، هو لم يكلفك بالكذب أو بالنفاق أو بالمجاملة أو بالفرقعات الصحفية، هو كلفك بالعمل، هل تذكر ماذا حدث لحظة أن كلفك بالعمل؟

- صدقينى.. لست أذكر..

- أنا فعلاً واثقة إنك لا تذكر.. هذه هى الكارثة، أنتم جميعا تنسون أنكم اقسمتم القسم، لا أحد منكم يذكر أنه أقسم على احترام دستور البلاد، لا أحد منكم يذكر أنه يعمل عند المصريين، أوهام القوة والنفوذ والثراء تمسح امخاخكم وتسلمكم فى النهاية إلى إحساس غريب بأن المصريين يعملون عندكم. لستم مكلفين بحماية المصريين، بل المصريون هم المكلفون بحمايتكم والإنفاق عليكم، كم مسئولا فى الحكومة الانجليزية والفرنسية والأمريكية

يستمتع بما تستمتع به أنت.. كم منهم يركب المرسيدس الشبح؟

– ياعـزيزتـى .. أقـسـم لك إننى لـم اتربح مليـمــاً واحـداً من منصـبى، رزقى كله حـلال، حـصلت عليـه عن طريق مكتـبى الاستشارى.

– مكتبك الاستشـارى الذى لم تدخله منذ أعوام يعمل بهذه الفزارة والبركة لأنك مسـئول كبيـر، أنت تعرف ذلك جيداً، فلا داعى لأن تقول هذا الكلام لزوجتك، قله للصحافة، لا تتصور إنك بهذه العبقرية، إن الشخص الوحيد المؤهل للحكم على عبقرية الزوج ورجـولتــه أيضـا هو زوجتـه، لماذا قلت إن حـزبكم ليس علمانياً، ما معنى هذه الكلمة؟ هل شرحتم معناها للناس قبل أن تتبرأوا منها؟ هذا القرار الذى أصدرته فى لحظة، هل أخذت فيه رأى قواعد الحزب؟ هل ناقشت هذه المسألة مع زملائك؟ هل هو قرار أصدرته قيادة الحزب؟ هل تتصور أن الجماعات الدينية المتطرفة فى مصر عندما تستمع إلى تصريحك ستصيح فرحه "هيه.. مصر ليست علمانية، مش تقول ياراجل من الأول" ثم تلقى بالسلاح وتتوقف عن زحفها إلى كراسى الحكم؟ على العكس من ذلك، هذا الإنكار للعقل والعلم الذى يدل على الضعف والخواء الروحى، حتماً سيشعرهم بالمزيد من القوة وبالتالى المزيد من الضحايا.. هل تعتقد فعلا أن العلمانية هى الإلحاد والكفر؟ فاردت أن تقول لم إن حزبكم ليس كافراً ملحداً، هل تعتقد فعلا

أن حكومات هذا العالم كله من الملاحدة الأوغاد والأبالسة؟ أم إنك - وهذا هو ما سيفهمونه - تريد أن تحجز مكاناً عندهم.. هل تتصور أنهم أغبياء؟

- ياحبيبتى، إنها مجرد كلمة لاخطر منها.

- ليس أخطر على الأرض من الكلمات، الكذابون الكارهون للحياة يستخدمونها فيجندون خلفهم طابوراً طويلاً من التعساء عشاق الهدم والتدمير، والمدافعون عن الحياة يستخدمونها فينضم لهم عدة أشخاص فقط، فى هذا الوقت بالذات نحن أحوج ما نكون لأن نعلن ما نؤمن به، إن البديل الوحيد للحكومة العلمانية هو حكومة من الرجال المشتغلين بعلوم الدين، من ذوى الروائح العطرة، كل منهم على حدة يعتقد أن صلة خاصة تربطه بالسماء وتعطيه الحق فى القضاء على الآخر، هو الحق كل الحق والآخر هو الباطل كل الباطل، هو العضو الوحيد العامل فى حزب الله والآخرون أبالسة أعضاء فى حزب الشيطان، أى شخص فيهم سيصل إلى الحكم سيضغط على زر المذابح، هذا هو ما أثبتته التجربة التاريخية العملية، الآن وفيما مضى، فهل هذا هو ما أقسمت عليه.

- ياحبيبتى، أنت تحاسبيننى على إنى قلت كلمة واحدة لا أعتقد أنه سيكون لها كل هذا التأثير الذى تتكلمين عنه، أنا لم

أؤلف كتاباً أقول فيه إن الأرض ليست كروية أو أنها لا تدور.

- ستكتب هذا الكتاب إذا تصورت أنه يرضى بعض الناس.. دعنى أحدثك عن تأثير الكلمة.. قبلنى.

- نعم..؟!!

- قبِّلنى..

- ماذا؟!.. ماذا تقصدين؟

- يا إله السموات.. أقصد أن تقبلنى، هل لابد أن يقصد الإنسان شيئاً آخر عندما يقول كلمة قبلنى؟.. سأعطيك درساً فى العلمانية، العلمانية هى شرف العقل، أن يقول الإنسان ما يشعر به بصدق، هى أيضا احترام التجربة الإنسانية، والتجربة تقول إنك عندما تقبلنى، كلانا يشعر بالسعادة، أم أنك لا تشعر بمتعة عندما تقبلنى؟!

- لا طبعاً.. أشعر باستمتاع كبير.

- حسناً.. قبلنى.

نظر لها فى البداية فى توجس ثم اقترب منها وقبلها، ثم تحولت القبلة إلى قبلات، الأحداث الغريبة التى مرت به فى تلك الليلة أشاعت في جسمه قدراً من التوتر جعله يعانقها بقوة وصدق وعذوبة، بعد دقائق ابتعدت عنه وهى تهمس: أرأيت؟..

كلمة واحدة ترتب عليها إحساس جميل.

- نعم.. إحساس جميل جداً.

عادت تهمس فى رقة: لقد شرحت لك أن كلمة واحدة ينتج عنها أكبر قدر من الإحساس بالراحة واللذة والمتعة، سأقول لك كلمة أخرى واحدة.. وبذلك تكتمل التجربة العلمية.. طلقنى..

- نعم.. ماذا تقولين؟

- طلقنى..

- أنا لم أخطئ فى حقك.

- أنت أخطأت فى حق كل المصريين جميعاً.. أنا واحدة منهم.. طلقنى.

- حسنا، لقد فهمت الآن ماذا تقصدين، سأحرص منذ الآن على كلماتى، أنا آسف ياحبيبتى، لقد أدركت الآن فعلاً خطورة الكلمات، سأطلب عقد اجتماع للحزب، سنطلب من أجهزة الإعلام شرح معنى كلمة العلمانية للناس، وسنطلب منهم الدفاع عنها.

- لن يحدث، لأنكم تعرفون أن دفع الناس للإيمان بالعلم وعناصره وهى التجربة والمشاهدة والاستنتاج، قد تجعلهم يقولون لكم، لقد ثبت بالتجربة أن فلانا فاشل، وعلانا فاشل، والمشروع الفلانى فاشل، والمادة الفلانية فى الدستور ثبت عدم جداوها، وقد

يقول لكم بعض المطلعين على أحوال العالم.. لا مسئول على وجه الأرض يركب سيارة بمثل هذا الثمن سواكم، أنتم تتعاملون مع الكلمات وكأنها حبات التراب، لا تتصورون أن الكلمات هى فى حقيقتها أفعال، وأن هذه الأفعال قد تكون مؤلمة وخطرة للغاية.. والسبيل الوحيد لدفعك لفهم ذلك هو أن أقول لك.. طلقنى.

وهنا أدرك أن الموقف جد لا هزل فيه فقال بتحد: لن أطلقك.

- حسناً سأثبت لك أن هذه الدولة علمانية، بحكم الدستور والقانون والأعراف.

- هذه دولة إسلامية بحكم الدستور.

- نعم، لأن الإسلام نفسه دين علمانى، يحض على التفكير واحترام العقل، والرسول (صلى الله عليه وسلم) طلب منا أن نطلب العلم ولو فى الصين بينما ترفض أنت أن تطلبه فى القاهرة، سأذهب للمحكمة ومعى جدول بمواعيد عملك واجتماعاتك وندواتك وسفرياتك ومواعيد ذهابك إلى المطار.. سأقول للقاضى إننى أخشى على نفسى من الفتنة.

- سأتكلم مع أهلك.

- هذا لأنك تتصور أننى مواطن من الدرجة الثانية.. إمرأة، وهذا فهم طبيعى من شخص يتنكر للعلمانية، لذلك يؤمن العلمانيون بحقوق الإنسان الفردية.. أنا مواطن فى هذا البلد..

القانون العلمانى المأخوذ من الشرع أعطانى الحق فى أن أطلب منك الطلاق وأحصل عليه.

فى تلك اللحظة رن جرس التليفون رنات طويلة، كان صديقاً له يتكلم من السفارة المصرية فى عاصمة أجنبية قال: أنا آسف لإزعاجك فى هذا الوقت.. ماذا حدث؟.. ماذا قلت؟.. لقد أبلغتنا مصادرنا فى الجامعة التى كنت فيها بأنهم سيعقدون غداً اجتماعاً لسحب درجة الدكتوراه منك، هل قلت شيئاً ضد العلم؟ أو يدل على عدم احترامك للعلم؟

فى هذه اللحظة شعر بالأرض تميد تحت قدميه، فقد تذكر أنه اقسم على احترام العقل والعلم عند مناقشة رسالة الدكتوراه.

تمكن بصعوبة من وضع سماعة التليفون فى مكانها وهو ينهار جالساً فى مكانه، أدركت زوجته أن كارثة قد حدثت فسألته بقلق: خير.. حد توفى؟

أجاب: أنا.. الجامعة حاتسحب درجة الدكتوراه بتاعتى.

بالرغم من إحساسها الشديد بالغضب إلا أنها شعرت فى تلك اللحظة بأسى عميق تجاهه، هو زوجها على أية حال، ولكن شعورها بالعطف والأسى ما لبث أن تحول إلى شعور بالشماتة المختلطة بالاستياء، هو السبب فى ما حدث وما سيحدث.. من حق الجامعة، أى جامعة أن تسحب الدرجة العلمية عندما تكتشف

أن الحاصل عليها غير جدير بأن يحمل شرف العلم.

هو أيضا، الإحساس بالإهانة ملأه بغضب عصبي: يعنى إيه؟ هم بيتلككوا؟ مش عاوزها، مش عاوز حاجة من وشهم. أنا اللى غلطان اللى رحت خدتها من هناك.. ألف جامعة مصرية تتمنى تدينى الدكتوراه.. أخيراً ها هو الدليل على أن الغرب يحارب الإسلام والمسلمين.. من قال إننى تنكرت للعلم، العلمانية ليست هى العلم، العلمانية هى العالم.

– تقصد إنك تنكرت للعالم وليس للعلم، أنت لست فى حاجة إذن للعالم، لست فى حاجة لمساهماته فى حل مشاكلك، لماذا تغضب إذن عندما تسحب منك جامعة عالمية شهادتك العلمية؟

– ولا يهمنى.. يسحبوها.. حاسجل هنا دكتوراه ثانية، واخدها وأنا واقف، وفى أى حاجة، كل ده مايهمنيش، اللى يهمنى موقفك منى، أنا لا أتصور إنك تتخلى عنى فى لحظة وتنضمى لأعدائى، بقى معقول واحدة متعلمة زيك تطلب الطلاق من جوزها عشان موتور عربية وموتور أسانسير؟

– لا تنسَ أنه ليس موتور سيارة عادية... إسمع ياعزيزى، لن أتخلى عنك فى هذه الظروف سأقف بجوارك فى معركتك للدفاع عن شهادة الدكتوراه، من المؤكد أنهم لن يسحبوها منك إلا بعد أن يعطوك فرصة للدفاع عن نفسك، الدفاع الوحيد فى هذه

الحالة هو أن تعترف بخطئك. أن تقول.. أيها السادة، أنا أعتذر لأنى أخطأت.

- ليس من تقاليد السياسة المصرية ولا السياسيين المصريين أن يعترف أحد أنه أخطأ، إنها مسألة تراث وتقاليد، هل سمعت عن مسئول قال إنه أخطأ..

- نعم، عمر بن الخطاب، قال أخطأ عمر وأصابت امرأة..

- وهل كان سياسياً مصرياً؟

- أنت أيضا لست سياسياً مصرياً، أنت مسئول كبير، عندما تتخلى عن منصبك أو يتخلى منصبك عنك، تتحول إلى لامسئول صغير، واحد من أحاد البشر، كل قوتك تستمدها من خارجك وليس من داخلك، أثبت لى أنك قوى من الداخل، وأنك كبير، ليس لأنك فى السلطة ولكن لأنك كبير.. قل أنا أخطأت.

- أنا لم أخطئ، أنا كنت أؤدى واجبى، اسمعى أنت لا تفهمين فى السياسة، ما قلته كان عملاً سياسياً ناجحاً من الدرجة الأولى، عندما يقود بعض الناس الشارع إلى الغيبيات فعلينا أن نزايد عليهم، هذه هى السياسة.

- تزايد عليهم بارتكاب الشر، بالأكاذيب، بالبلاهة؟ يارجل عندما تكذب أنت فى أعلى درجات السلطة سيكذب جيش جرار من البشر تحتك.. عندما تزايد فى اتجاه السراب، سيزايد كل

رجال السلطة فى نفس الاتجاه.. وتتوه الحقيقة، وعندما تتوه الحقيقة يزدهر الشر والعدوان فى كل مكان وتتقوض أركان الدولة، لديك فهم خاطئ للسياسة، أنت تجردها من الشجاعة والصدق والنبل والشهامة والعدل والحق والنزاهة.. أين تعلمت هذه السياسة الى تتكلم عنها؟

– عند ميكافيللى، لقد قال إن الغاية تبرر الوسيلة.

– أنت كاذب، أنت لم تقرأ ميكافيللى، وأنصحك بأن تقرأه جيداً، هو يطلب من الأمير أن يكون ثعلباً وأسداً، الحيلة، المكر، الخداع، كلها أمور مطلوبة فى دائرة الحكم الضيقة الباردة الموحشة، فى أروقة القصور الملكية والجمهورية، حيث الرجال ممتلئون بالطموح والقوة والفزع، كل منهم على استعداد لسحل الآخرين ليزداد قرباً من الأمير، وحيث الاجتماعات واللقاءات مع الثعالب والذئاب من ممثلى الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وكل منهم يقترب منك بنعومة ليحصل على قطعة من جسمك.. قد تبتسم فى وجه موظف كبير من معاونيك، وتدعوه للغداء وتعامله بلطف ورقة بينما أنت قد وقعت لتوك قراراً بفصله، ولكن بعيداً عن هذه الدائرة الضيقة، أمام الأمة، وفى كل ما يخص الأمة، يجب أن تكون أسداً تتسم بالقوة والجلال، الغاية تبرر الوسيلة لحماية الحكم والأمة وليس لضربهما، إن الهدف من هذه المقولة كما يقول ميكافيللى هو حماية الأمير من النصابين، إن السلطة

فى كل العصور، وكل مراحل التاريخ، هدف للنصابين، ولابد من حمايتها منهم، وهنا يصبح من الشرف والأخلاق أن تبرر الغاية الوسيلة، ولكن أن تخرج للنصابين علناً وتقول لهم أمام الشعب، أيها السادة.. نحن نصابون مثلكم، فمعنى ذلك أن ميكافيللى سيموت من الضحك والغم مرة أخرى فى قبره.

طبعاً هو لم يقرأ ميكافيللى هو وزملاؤه، بل لم يقرأ كتاباً واحداً منذ أن تخرج فى الجامعة، ليس لعداء شخصى للقراءة ولكن لأن قراءة المذكرات والتقارير لا تترك له لحظة واحدة يستمتع فيها بقراءة كتاب، وبمرور السنين اكتشف أنه قد فقد القدرة تماماً على قراءة ما ليس حكومياً، هذا العجز عن القراءة تحول بالتدريج إلى كراهية لهؤلاء الذين يقرأون ويعرفون، نفس الكراهية التى بدأ يشعر بها الآن تجاه زوجته، لو أنه يعرف ما تعرفه زوجته لحقق نتائج مبهرة بين زملائه، بل لقد كان من الممكن أن يصبح مُنظراً للحزب.

ككل الضعفاء عند الشعور بالعجز أخذ يبحث عن نقطة ضعف فى كلماتها ليثبت لها أنه أكثر علما وأخلاقا فقال لها: أين الأخلاق والشرف فى أن أعامل أحد العاملين معى بلطف ورقة كما تقولين وأدعوه للغداء بينما أنا قد وقعت قراراً بفصله؟

- بالتأكيد أنت تتخلص منه لأنه وغد يمثل خطراً على الدولة

والشعب، لو اشتم منك قبل إقالته بدقائق أنك قررت التخلص منه فسيستخدم كل صلاحياته لزرع أعوانه فى أماكن عديدة لتدميرك فى الوقت المناسب، لذلك أنت مطالب هنا بأن تكون ثعلباً حماية للدولة والشعب، أما هؤلاء الذين يمثلون دور الثعالب على طول الخط، فهم فى الأصل ثعالب عاجزين عن أن يكونوا أسوداً.. كن أسداً ياحبيبى، واعترف أنك أخطأت.

وهنا أنفجر فى ثورة: لا.. لم أخطئ، اسمعينى أرجوك وافهمينى.. أنا لم أخطئ لسبب بسيط.. من المعروف أننا جميعاً نعمل بتوجيهات عليا، إذا اعترفت بأننى أخطأت فهذا معناه أن التوجيهات العليا خاطئة..

- أفهم من ذلك أنك قلت ما قلته بتوجيهات عليا؟

- لا.. لم يحدث، لم تكن لدى توجيهات عليا بذلك.. إذا اعترفت بأننى مخطئ وبأنه لم تكن لدى توجيهات عليا بما قلته، كان معنى ذلك أننى محروم من التوجيهات العليا، زملائى سيفسرون ذلك بأننى من المغضوب عليهم، وعندما تتردد الإشاعات بذلك فى أروقة الحزب قد تصدق القيادة السياسية فعلاً أننى من المغضوب عليهم وتحرمنى من التوجيهات العليا، وأضيع، لأننى لا أجيد العمل بدون توجيهات عليا.. إن التوجيهات العليا بالنسبة للمسئول هى نفسها البوجيهات بالنسبة للموتور،

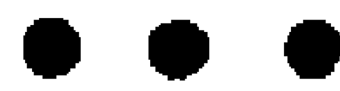
هل تتصورين ياعزيزتى أن أعمل بلا بوجيهات أقصد بلا توجيهات؟

- نعم، أريدك أن تعمل بدون بوجيهات، أقصد بدون توجيهات.

- فى هذه الحالة سأتهم بأننى أعمل بدون توجيهات.. وهذه كارثة فى حد ذاتها.

- الحل؟

- ما أعرفش.. والله ما أعرف.



بكى صاحبنا من شدة إحساسه بالعجز، غير أن دموعه أفلحت فقط فى جعل زوجته أكثر إصراراً على الطلاق الذى حصلت عليه بالفعل فى تكتم شديد.

طلب توجيهات بما يجب أن يفعله بخصوص سحب الدكتوراه، فصدرت له التوجيهات بأن يتوجه للجامعة فى العاصمة الأوروبية للدفاع عن نفسه، تم التكتم على الخبر، لم يتسرب للصحف الحزبية أو الحكومية وهناك، أمام مجلس الجامعة، أنكر أنه قال كلمة واحدة ضد العلمانية بفرض أنها منسوبة للعلم أو للعالم.

ولكنه فوجئ بهم يقدمون له شريط ڤيديو مسجل عليه تصريحه

بالكامل فأنكر أن التسجيل يخصه وقال أنه يخص مسئولاً آخر يشبهه تماماً صوتاً وصورة، ومع تأكد مجلس الجامعة أنه قال فعلاً هذا الكلام إلا أنهم اكتفوا بإنذاره وتوجيه اللوم له. لم يسحبوا منه شهادة الدكتوراه إكراماً لدور مصر فى المنطقة، وحرصاً على عدم إشاعة الفزع بين المثقفين الحكوميين فى العالم الثالث.

لوحظ بعد ذلك أنه كف عن مهاجمة العلمانية أو أى شئ آخر علناً أو سراً.. بل إنه زيادة فى الحرص اكتفى بالابتسامات يوزعها ذات اليمين وذات الشمال فى كل اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات وحتى فى زياراته لأهله وأصدقائه مراعياً أن تكون كلماته القليلة خالية من أى معنى محدد. من يدرى أليس من الممكن أن يقول كلمة تغضب توربينات السد العالى؟!

ملف الزلزال

* حـــوار مع زلزال
* حـوار مع صــديق
* زوالط خــــوالزية
* الرقص مـع الزلزال

حوار مع زلزال

عندما أتعب من الحديث مع البشر أتكلم مع الأشياء، أقيم حواراً بيني وبين السحاب والنجوم، أهمس فى أذن القمر، أناقش النهر، بل إننى أتكلم مع أشياء أبسط من ذلك بكثير، مثل الشوارع والأرصفة، ولست فى ذلك وحدى، فأنا أعرف كثيرين يتكلمون مع الفلوس فى كل ليلة ويهدهدونها وهم يحصونها ويودعونها بحرص وحنان فى الخزائن، وأعرف أناساً كثيرين يديرون حواراً عاطفياً بينهم وبين الكباب وطواجن اللحم بالبصل. وأعرف أيضا كثيرين يخطبون ودها فلا يزيدها ذلك إلا صداً وهجرانا.

أما أنا فلدى قدرة على التركيز العقلى فيمن أريد أن أحدثه فيتجسد أمامى حيا ناطقا. بالأمس شعرت بالغضب يملؤنى لما أحدثه ذلك الزلزال الوغد.

وشملنى تفكير عميق فى آثاره المدمرة التى قذفت آلافا من البشر فى بئر التعاسة. تمنيت أن أرى هذا الزلزال أمامى لأضربه بالحذاء، ويبدو أننى كنت أفكر بعمق لدرجة جعلته يتجسد

أمامى، كان أشبه بشخص ضخم الجثة نحتت ملامحه من الصخور والحجارة، وقف أمامى ثم دمدم بصوت كريه اهتزت له الغرفة، قال: هل تريدنى ياسيدى؟

عقدت الدهشة لسانى ويبدو أن نظرة الرعب فى عينى جعلته يقدم لى نفسه: أنا الزلزال ياسيدى!!

انفجرت فيه غاضبا لأغطى على خوفى منه: آه.. أنت الزلزال الذى ضرب مصر.. كيف جرؤت على أن تأتى إلى هنا فى مكتبى بعد أن فعلت هذا الذى فعلته؟.. ماهذا الذى فعلته أيها الشرير.

- أنا زلزال ياسيدى، وليست هناك زلازل طيبة وأخرى شريرة.. هناك زلازل فقط، لقد كنت أمارس مهام وظيفتى.. وظيفتى أن أكون زلزالا.. أن أزلزل.. كما أن وظيفة الريح أن تهب، وكما أن وظيفة القمر أن يضئ.. أنا جزء من الطبيعة ياسيدى ومكون من مكوناتها، والطبيعة لاتعرف الخير والشر، الطبيعة هى الطبيعة، يدهشنى ياسيدى أن تعتقد أننى قاس ومدمر وشرير، إن لى أخوة وزملاء من الزلازل أقوى منى بكثير، إن قوتى هى ٥,٦ فقط، وفى عالم الزلازل يسخر منى زملائى ويتهموننى بالرخاوة والضعف.

صرخت فيه: إخرس أيها الكاذب المراوغ.. ألا ترى الآثار الإسلامية التى تصدعت وانهارت.. ألا ترى عشرات الألوف من

البشر ينامون فى الشوارع وعلى جسور القرى؟ ألم تشاهد عمارة مصر الجديدة التى انهارت على سكانها فقتلتهم؟

رد بصوت صخرى: لاداعى للغضب والصراخ إذا كنت تنشد الحقيقة.. تحدثنى عن المبانى التى تصدعت أو سقطت، لماذا لا تكلمنى عن المبانى والمنشآت السليمة التى صمدت لى؟ هل لديك الشجاعة لكى تكلمنى عن الآثار الإسلامية التى اندثرت من فرط إهمالكم؟ ألم تتخذوا منها أماكن لمأوى هؤلاء الذين تهدمت مساكنهم؟ كف عن النفاق، أما عمارة مصر الجديدة فلست أنا المسئول عن سقوطها، أنا فقط كنت القشة التى قصمت ظهر العمارة، كانت مبنية من التراب.. وكان لابد أن تسقط لسبب أو أخر.

استفزتنى كلماته فصحت فيه: وأنت مالك انت يا أخى.: لماذا تكون القشة التى تقصم ظهرها؟ احنا أحرار يا أخى، نبنى بالتراب، نبنى بالرمل نبنى بالورق.. نحن أحرار فيما نفعله، لماذا تتدخل أنت؟

فرد بهدوء: هذا بالضبط ماجئت أتحدث إليك بشأنه.. أنتم أحرار فى كل ما تفعلونه بشرط احترام قوانين الطبيعة وقوانين الحياة، عندما تحتقرون قوانين الهندسة والرياضة والميكانيكا، وعندما تحتقرون قوانين الطبيعة وقوانين البشر فهذا معناه أنكم

تهددون الحياة نفسها فوق الأرض، وهنا لابد أن تتدخل الطبيعة لتنبهكم إلى أخطائكم وبلاهتكم، ولتحذركم من استغلالكم السيئ للحرية التى منحها الله لكم.. كل قدراتكم العقلية وسلطاتكم وظفتموها للقفز على القوانين والقواعد والتعليمات والعلم، لم تحترموا أنفسكم فكان من السهل عليكم احتقار قوانين البناء.

بدأت أفكر فيما يقوله فخف غضبى وازدادت تعاستى: بفرض أن كلامك صحيح، هل تنبهنا بمثل هذه الكارثة؟ هل كان لابد من مئات القتلى والجرحى لتحذيرنا؟

– نعم للأسف، ودعنى أقول لك، بالرغم من كل ماحدث، لقد كنت رحيما بكم، الآن فقط ستبدأون فى احترام قوانين البناء، بل وستحترمون بقية القوانين، قوانين الطبيعة وقوانين البشر، أو على الأقل هذا هو ما أمل فيه أنا بوصفى مندوبا عن الطبيعة، الآن فقط تتعلمون أن الحياة مصدر للخير والخطر، وأن هؤلاء الذين يفكرون فى خطرها هم فقط الذين يستحقون خيرها. صارحنى، كيف كنتم ستتنبهون إلى أن مدارسكم كلها قديمة لا تصلح للاستخدام الآدمى، الآن فقط ستتصرف عقولكم ابناء مدارس قوية بعد أن انشغلتم كثيراً ببناء المدن السياحية، الآن فقط ستنظرون حولكم باعتبار أن الحياة ليست فقط مصدراً للتهليب ولكن للموت والتشريد، والفزع والتعاسة، صدقنى، ستبدأون الآن فى احترام أنفسكم.. وتعيشون وفقا لقوانين الحياة والطبيعة، لن

تفسدوا البيئة، لن تلوثوا النهر والبحيرات، ستعاملون بقسوة كل من ينتهك القوانين والتعليمات.

صحت فيه فى تحد: انت وصى علينا يا أخى؟.. ولماذا أنت واثق كل هذه الثقة من أن تحذيرك لنا سيأتى بكل هذه النتائج؟

– لست وصيا عليكم، أنا الطبيعة، لست جزءاً منكم ولكنكم جزء منى وعليكم الاعتراف بذلك وإلا هلكتم واندثرتم كما حدث لأمم وشعوب كثيرة من قبلكم.. لاتدع الغضب والحزن يستوليان عليك ويخفيان عنك حقيقة هامة.. كان لابد من بعض الشر ليسود كل الخير.. لقد مات مئات البشر كى لا يموت كل البشر، سقطت بعض المبانى لكى لا تنهار كل المبانى، فكر فى الدور الخير للشر، فكر فى المستقبل الذى ستبنونه بدافع من وعيكم بالخطر.. ألا تضربون الأطفال على أيديهم بالمسطرة لكى يكفوا عن العبث بالأشياء "القيِّمة"؟! حسنا لقد كانت مجرد ضربة بسيطة على أيديكم لكى تكفوا عن التهريج.. هل مازلت غاضبا منى؟

فأجبته: نعم، أنا غاضب منك فقد أيقظتنى من عز نومى فى العسل، عريتنى أمام نفسى وأمام الآخرين ولأنك سترغمنى على أن أعمل بجد وأفكر بجد، بعد أن كنت سعيداً بالهزار والدلع.. وتعس لأنك سترغمنى على احترام قوانين الطبيعة وقوانين البناء بينما كنت مستمتعا لسنوات طويلة بالفهلوة والحداقة.. منك لله.

حوار مع صديق

من أجمل الأشياء على وجه الأرض أن يستمتع الإنسان بالموت والحياة فى آن واحد، أن يحيا ميتاً وأن يموت حياً مستمتعاً بحركة الحياة وجمود الموت معاً.

أقول ذلك تعليقاً على يوم القيامة الذى نجحت أجهزة الإعلام تماماً فى إفهامنا أنه لم يحدث، وأن الذى أشاع ذلك واحد من النصابين فى شرق آسيا، الحقيقة هى أننا قد متنا جميعاً وأنا أتحدى أى مخلوق أن يثبت أننا أحياء. أنا أيضاً كنت مخدوعاً مثلكم، تصورت أنها إشاعة سخيفة كاذبة وعندما مر يوم الأربعاء ٢٨ أكتوبر على خير تنفست الصعداء بعد أن تصورت بسذاجتى أن القيامة لم تقم غير أنى فوجئت عند ذهابى للكافتريا فى المساء بصديقى الناقد السينمائى المرحوم سامى السلامونى جالساً يداعب طبق مكرونة اسباكتى كبيرا، للوهلة الأولى تصورت أننى أحلم، لا لست أحلم، لقد نمت بعد الظهر ثم نهضت وارتديت ملابسى ونزلت إلى الشارع، وركبت تاكسياً، حدثنى سائقه طويلاً عن مأساة بيته الذى تهدم بسبب الزلزال، ثم نزلت بجوار الأوتيل

الذى توجد به الكافتريا، وأذكر أننى ألقيت بالتحية على موظف الاستقبال، أى أننى لا أحلم، وهذا الشخص الذى يجلس أمامى هو سامي السلاموني فعلاً، صديقى الساخر الجاد الذى مات وسرنا فى جنازته وأوصلناه إلى قريته، ما هذا الذى يحدث؟

اقتربت منه بحذر وقلبى يرتجف ثم تظاهرت بالهدوء وبأنه لا غرابة فيما أراه وقلت له: أهلاً ياسامى.. أين أنت يارجل؟

نظر لى بعتاب ونصف ابتسامة: ألن تكف عن ترديد الكلمات التى لا معنى لها.. بذمتك ألا تعرف أين أنا؟

تشجعت قليلاً وقلت له ببساطة: أعرف أنك مت.. وإنك الآن فى العالم الآخر.. ما الذى أتى بك؟

- الواقع يا صديقى أننى لم آت.. أنتم الذين أتيتم.

أشعرتنى إجابته بالاضطراب: هل تقصد أننا متنا؟

رفع صوته قليلاً وقال بدهشة واستنكار: ألا تعرفون ذلك؟ أعتقد أنكم تعرفون ذلك جيداً ولكنكم كعادتكم دائماً فى تجاهل الحقائق لا تعترفون بأنكم توفيتم إلى رحمة الله.

- صديقى سامى.. بصراحة لست أدرى عماذا تتكلم.. أنا شخصياً حى أرزق.

وهنا ضحك ضحكته الجميلة الصاخبة وقال: حى ترزق؟.. ما

هو دليلك على ذلك؟

– دليلى على ذلك هو.. دليلى على ذلك هو.. دليلى على ذلك هو..

يا نهار اسود، عقلى لا يسعفنى بالعثور على دليل.. ربما لأننا لا نتصور أن يطالبنا أحد بإثبات أننا على قيد الحياة، ومع ذلك فقد تمكنت من العثور على دليلين لا يمكن إنكارهما، فقلت له بلطف: دليلى هو أننى سلمت مقالتى اليوم، ودليلى أيضاً هو أننى آتى إلى الكافتريا وأجلس مع أصدقائى.

مرة أخرى ضحك سامى وقال: ياله من دليل على الحياة، كثير من الناس سلموا مقالاتهم اليوم إلى الصحف، وهى مقالات ميتة لن يقرأها سوى المصحح المسكين، هل هذا دليل على أنهم أحياء؟.. أما الدليل الآخر فهو مضحك وخاصة عندما يسوقه كاتب مسرحى.. هل الجلوس فى الكافتريا دليل على الحياة؟ أنا مثلاً، ميت كما تعرف، ومع ذلك ها أنت ترانى أجلس فى الكافتريا أتناول المكرونة واحتسى المياه الغازية.

أشعرتنى كلماته بالرعب فهمست: سامى، ماذا تقصد؟ هل تقصد أن القيامة قد قامت في الموعد الذى تنبأ به النصابون وأننا – ولا مؤاخذة – متنا جميعاً؟

– القيامة نفسها التى تكلمت عنها الكتب السماوية بنفس

المواصفات التى حدثتنا عنها لم تقم، ولكنكم جميعاً متم بطريقة "المزج" فى السينما، هل تعرف اللقطات السينمائية التى تختفى تفاصيلها ببطء شديد جداً لتحل محلها لقطة أخرى؟ هذا هو ما حدث لكم، متم تدريجياً بنعومة وانسيابية بحيث ظللتم تتوهمون أنكم أحياء.

- هل تقصد أن كل الجالسين فى الكافتريا الآن؟

- أموات.

- والمطربون والملحنون ومؤلفو الأغانى والمسلسلات؟

- أموات.

قلت لنفسى بحزم، لا، ليس هذا واقعاً، هذا كابوس، هناك كوابيس لها قوة الواقع، أنا متأكد أننى مازلت حياً، ومتأكد أننى بعد لحظات سأستيقظ مفزوعاً وأقول اللهم اجعله خيراً، ولكن على أن أهدأ، وأن أتعامل مع الموضوع بعقل بارد.

- سامى، هذا كابوس، أنا أقابلك الآن فى كابوس وليس فى الحياة.

فرد بجدية: إذا كان يمتعك أن تخدع نفسك وتعتنق هذه الفكرة فلا بأس، ولكن دعنى أقول لك، الشجرة تكون حية عندما تظل شجرة تنبت الثمار والأوراق الخضراء، والأنهار تكون حية

عندمـا لا تعـرف التلوث، والطيـور تكون حـيـة عندمـا تحلق فى السماء، والإنسان يكون حياً عندما يمارس إنسانيته بأرقى وأعلى المواصفات، أما عندما يكذب على نفسه وعلى الآخرين فلا يكون إنساناً، بمعنى أصح يكون إنساناً ميتاً، الحياة تكون حياة عندما نحياها بأرقى المواصفات وأكثرها ثراء ونبلاً وقوة وعظمة، وإلا فـهى الموت، أنظر حـولك الآن، المقـيـاس لكل شئ هـو المقـيـاس الفقير، وكل المواصفات فقيرة، وحتى عندما نقول هذا فيلم جيد فـواقع الأمـر أننا نعنى أنه ليس بالغ السـوء، وعندمـا نقـول عن شـخص أنه جيد فنحن نعنى أنه أقل وضـاعة من الآخرين. هى مقاييس للحياة، تعسة فقيرة اخترعناها نحن اختراعاً وارتحنا للعيش فى ظلها أو بمعنى أصح للموت فى ظلها وعندما يتطوع أحد الناس لتذكيرنـا بأن مـواصـفـاتنا فـقـيرة وأن سلوكنا فـقـير نهجم عليه هـجمة رجل واحد ولا نستريح إلا بقتله أو على الأقل نحاصره بحيث لا نمكنه من إيصال صوته للناس. وفجأة يحدث زلزال خفيف فتسقط ألف مدرسة حديثة البناء، لأن الذى بناها إنسان ذو عقل فقير المواصفات ميت الضمير، والذى أشرف على بنائها ووافق على استلامها شخص فقير المواصفات ميت الضمير. بربك، عندما تموت ضمائر الناس، هل يمكن اعتبارهم أحـيـاء لمجـرد أن أمـعـاءهم وفـشـتـهم وطحـالهم وبنكرياسـهم ومـصـارينهم الغليظة تعمل؟ هم أمـوات طبـعـاً يمارسـون الموت

ويصنعونه للآخرين في كل لحظة، سأشرح لك الأمر على نحو مختلف، الناس عندما تذهب إلى دور السينما تشترى الشيكولاته والمشروبات المثلجة وبعضهم يشترى اللب والفول السودانى والمكسرات، هذه السلع تغذى عندهم احتياجاً حقيقياً ينبع من رغبتهم فى أكبر قدر من الاستمتاع بالفيلم، ما هو تفسيرك لهذه الانتشار المخيف للكتب التى تتحدث عن يوم القيامة وعذاب القبر؟ هل تقابلها كتب أخرى تتكلم عن جمال الحياة وعظمتها؟ لا طبعاً. لماذا؟ لأن الناس أموات يشترون سلعة يتسلون بها و "يقتلون" الوقت إلى أن يحين موعد ذهابهم للقرافة. هل لديك تفسير آخر؟

- الواقع يا صديقى سامى إنك تتحدث عن النتائج بينما أنا مهتم ومهموم بالأسباب، هذه الكتب عبأت الناس فعلاً على مدى الشهور والسنين بالفزع والرعب من كل شئ، طاقة الرعب هذه كانت تبحث عن مخرج، ووجدته لحظة الزلزال كما لو كانت الناس في انتظار هذه اللحظة للتعبير عن رعبها المتراكم داخلها، الزلزال نفسه لم يسبب هذا الفزع ولكنه كان الفرصة للتعبير عنه، بدليل أنه قد حدثت عدة حوادث سقط فيها ضحايا نتيجة لأن وغداً صاح فجأة: زلزال..

فاندفع الناس فى هلع يدوسون بعضهم البعض أو يلقون بأنفسهم من النوافذ، مع أن أبسط قواعد العقل تحتم أن يفزع الإنسان من زلزال عندما "يشعر" به وليس عندما يسمع به، أريد

أن أقول أن الأفكار التى تحتويها هذه الكتب تملأ الناس بالرعب والخوف.

نحن ياصديقي سامى فى حاجة لحضارة جديدة، أفكار جديدة، إبداع جديد.. نريدا جوا فكريا وحياتيا يمجد الشجاعة، والحرية والنبل والمثل العليا والمساواة والعدل واحترام الآخر.

وهنا قهقه سامى ضاحكاً وقال: أراك حتى بعد أن مت، مازلت ممتلئاً بنفس القدر من السذاجة والأوهام.

استيقظت وأنا أغمغم نعم، أنا ساذج للأبد، وسأظل ساذجاً، فهذه الحياة جميلة ولابد أن أواصل الدفاع عنها.. هل نملك الآن حياة غيرها؟

زوالـط خوالزية

لا يوجد خطأ فى عنوان هذا المقال، لكن حدث فيه لخبطة نتجت عن الهزة الأرضية الأخيرة، أنا شخصياً كتبت "خواطر زلزالية" فى نفس لحظة الزلزال الأخير، فاهتز القلم فى يدى واختلطت الحروف ببعضها البعض وأصبحت كما ترى زوالط خوالزية. الواقع أن كل شيء فى حياتنا اهتز اهتزازاً عنيفاً بعد ذلك الزلزال اللعين، وأصبح المصرى ينام وعيناه مفتوحتان على النجفة مركزاً أنظاره عليها باهتمام شديد لكى يلحظ أى اهتزاز فيها. أما كلمة "ريختر" التى تقاس بها قوة الزلازل والتى لم تكن معروفة إلا لعدد قليل من العلماء والمثقفين، فهى الآن على كل لسان بعد ارتفاع الوعى الزلزالى الريخترى، من النادر أن يدور نقاش الآن بين البشر دون أن تستمع لكلمة ريختر عشرات المرات.

كنت مدعواً لحفل زفاف وفجأة اهتز المبنى، كان زلزالاً خفيفاً ومع ذلك فقد أشاع الاضطراب والفزع بين المدعوين. بعدها بدأت محاولات التكهن بقوة الزلزال بمقياس ريختر، قالت سيدة: تلاقيه

بتاع ٣ ريختر بالكثير.

فرد عليها رجل يبدو على ملامحه حكمة زلزالية قائلاً: لأ أبداً.. ده بتاع اتنين ونص ريختر.. وأخذت كلمة ريختر تتطاير بين المدعوين لدرجة أنني خشيت أن تتلخبط الفرقة الموسيقية وتغنى: إترختري ياحلوة يازينة...

ولكن الله سلم، ومع ذلك فقد تحولت الكلمة من اسم إلى فعل دخل اللغة العربية، ففي أحد المقاهي البلدية سمعت صاحب المقهى يصيح في صبيه غاضباً: إعمل لك همة يا بني.. إنت ماشي تترختر؟

وكما يحدث في أعقاب الكوارث.. نشط النصابون، ووصل الأمر بالبعض منهم إلى الحصول على شهادات وفاة لأنفسهم لكي يتمكنوا من اقتناص شقة جديدة. بالإضافة طبعاً لعشرات البشر الذين دمروا عمداً بيوتهم القديمة، وظهر أحد الدجالين يبيع الأحجبة المضادة للزلازل، واندفع البشر ليشتروا هذه الأحجبة.

وعند القبض عليه فوجئوا بوجود مئات البشر يجلسون على الأرض أمام بيته في انتظار أن يأتي عليهم الدور ويأذن لهم بالدخول، ويقال إن رجال الأمن تحركوا عندما وصلتهم شكوى من أحد الضحايا يتهمه فيها بالنصب والاحتيال، فقد اشترى منه حجاباً مضاداً للزلازل قوة ٦ ريختر ودفع فيه مبلغاً كبيراً وعاد

إلى منزله القديم الآيل للسقوط سعيداً. علق الحجاب فى مدخل البيت فعلت زغاريد السكان وناموا لأول مرة باطمئنان. حدث ذلك يوم الخميس الشهير الذى حدث فيه زلزال قوة ٤,١٦ ريختر، فسقط البيت منهاراً وأمكن إنقاذ سكانه بصعوبة. خرج صاحب البيت من تحت الأنقاض غاضباً وأخذ يبحث بجنون عن الحجاب حتى وجده، أسرع على الفور إلى مرصد حلوان، وطلب منهم أن يفحصوا الحجاب بأجهزتهم الحديثة، كان هناك بالصدفة عدد من العلماء الأمريكان واليابانيين. فحصوا الحجاب وعايروه بأجهزتهم ثم قرروا أنه قوة ٣ ريختر فقط وأعطوه شهادة معتمدة بذلك. عاد الرجل بالحجاب والشهادة إلى الدجال ليسترد النقود التى دفعها، لكن الدجال أصر على أن الحجاب ٦ ريختر، وأنه إذا كان البيت قد وقع من زلزال قوته ٤.١٦ ريختر فليس معنى ذلك أن الحجاب غير صالح، ولكن معناه الوحيد أن بعض السكان نيتهم لم تكن خالصة، وأن نيتهم السوداء هى التى أبطلت عمل الحجاب، وقد يكون البيت عمره كده. وهنا خرج الرجل وذهب من فوره إلى رجال المباحث الذين قبضوا على الرجل. حاول الضابط المسئول عمل محضر تصالح بينهما على أن يرد الدجال فرق الريخترات ولكنه أصرّ على موقفه مؤكداً أن الحجاب سليم وأنه يستخدم فى ناطحات السحاب فى اليابان.

المهم نحن نريد أن نحذرك، توجد أحجبة مضادة للزلازل فى

السوق مغشوشة، حتى الأحجبة عيار ٨ ريختر، ٩ ريختر، ١٠ ريختر، اتضح بالتجربة أنها تفقد مفعولها فى الأدوار العليا، إذ هى تفقد ٦٠٪ من طاقتها الفاعلة بعد الدور السابع، بل إنها بعد الدور العشرين تفقد مفعولها تماماً. وعلى العموم نحن ننصحك إذا كنت قد اشتريت واحداً منها أن تعرضه فوراً على أقرب مركز للزلازل ليفحصوه لك مجاناً ثم يعطوك شهادة صلاحية معتمدة تستطيع أن تضعها فى عين أتخن زلزال.

وظهرت عشرات القصص الغريبة، ترك الزوج زوجته وأولاده وحمل جهاز التليفزيون وهرب من البيت لحظة الزلزال، مضيفة فى أوتيل خمس نجوم انهارت باكية وهى تحكى لزملائها ورؤسائها أن منزلها تهدم فى الزلزال فجمعوا لها مبلغاً كبيراً من المال ودفعهم الفضول لرؤية انقاض البيت فذهبوا إلى عنوانها فوجدوه سليماً، البيت وليس العنوان، ففصلوها على الفور ليس لأنها نصابة ولكن لأنها غبية، كان يجب أن تعطيهم عنواناً لمنزل وقع فعلاً فى الزلزال.

أما أغرب الحكايات التى قيلت فهى حكاية ذلك الرجل الطويل ذى اللحية البيضاء والجناحين الذى ظهر فى الأدوار العليا فى فندق سميراميس وأمسك بفتاة صغيرة فى الدور العشرين وطار بها ثم هبط وتركها فى بهو الفندق بعد أن أعطاها سندوتشاً، أتضح أن الورق الملفوف فيه السندوتش ليس من النوع المستخدم

فى الفندق ولا الخبـز ولا اللحم ولا البيض. وقـيل أيضـاً إن هذا الرجل الطائر الأبيض ظـهـر فى الأدوار العليـا فـى فنادق كـبـيـرة وأنقذ أطفالاً كثيرين وأعطاهم سندوتشات، الملحوظة الغريبة أنها كلها كانت بالبيض، فول بالبيض طعمية بالبيض، فراخ بالبيض، جبن بـالبـيض، بيض بـالبـيض، وقـيل إن أجـهـزة الرادار حـول القاهرة رصدت الرجل وهو يطير فوق فنادق الخمس نجوم، ولكن المسـئولين عنها ظنوه أحد طيـور الأوز الكبـيرة التى تطير فـوق سماء القاهرة فى ذلك الوقت من السنة.

أنا شخصياً شاهدته يطير فى منطقة المهندسين وامبابة وميت عقبـة، ظننته فى البداية طائرة شراعية صـغيرة من ذلك النوع الذى يطيـر من مطار امـبـابة القـريب. ولكن لفت نظرى كـمـيـة السندوتشـات التى يحـملهـا، من الغـريب أنه حـوم حـولنا ونحن جلوس فى المقـهى ودار دورتين كـبـيـرتين ثم طار على أرتفـاع منخـفض وألقى علينا قـفـة ممتلئة بالسندوتشـات مـربوطة فى براشـوت صـغـير، فى البـداية خـفت وزمـلائى منهـا ورفـضنا أن نلمسهـا، مع أنهـا كانت سـاخنة تفوح منهـا رائحة طيبة وأخيراً تشـجع أحـدنا وقضـم منها قـضـمـة صـاح على أثرها: الله.. دى طعمة أوى.

كانت كلها سندوتشـات أونطة بالبيض، أخذنا نـاكلها، ومـازلنا ناكلهـا، هل تصدق أننا ناكلها حتى الآن وكلمـا انتـهينا من أكل

واحد منها ظهر مكانه واحد آخر، يبدو أننا سنظل ناكل منها إلى الأبد.

الرقص مع الزلزال

ملخص قصة فيلم مصرى

اهديه مجاناً للسينما المصرية

أكرم طيار شاب يسكن فى الدور الـ ١٨ فى عمارة "برج السعادة" وسيم، ذكى، ممتلى رجولة، فشلت كل فتيات النادى ومطلقاته وأرامله فى الإيقاع به والفوز بقلبه، السبب فى ذلك أنه كان يحب نيڤين الأرملة الشابة التى تسكن الشقة المجاورة. وبالرغم من أنها تسكن إلى جواره منذ عدة أعوام إلا أن قلبه لم ينبض بحبها إلا بعد أن مات زوجها المعلم "بندق" تاجر المخدرات الشرير فى معركة مع الشرطة وترك لها ثروة طائلة فشل المدعى الاشتراكى فى معرفة مكانها..

كانت نيڤين حزينة جداً لذا لم تستجب لكل محاولاته للفت نظرها، الشئ الذى لا يعرفة أكرم أن نيڤين كانت تعمل راقصة فى ملهى ليلى رغبة منها فى القضاء على حزنها والتغلب على تعاستها، ومع ذلك فهى تحب أكرم، بدليل أنها استطاعت الحصول على صورة فوتوغرافية له من ملفه فى الشركة بواسطة

واحد من أقاربها الذى يعمل فى إدارة شئون العاملين. كانت نيڤين تضع صورة أكرم أمامها وترقص وتبكى فى آن واحد. لماذا إذن لم تستجب لحبه؟ لسبب بسيط، أهله لن يسمحوا له بالزواج منها، وهى لفرط نبلها ترفض أن تحرمه من أهله، كما أن مكانته فى شركة مصر للطيران قد تتأثر، وقد يحرمونه من الطيران على الخطوط الأوروبية ويحولونه للعمل على الخطوط الأفريقية، بل قد ينقلونه إلى خط القاهرة الصومال، أو القاهرة الخرطوم.

وذات يوم.

تقابلا مصادفة فى الأسانسير، فأوقف الأسانسير بين الدور التاسع والعاشر، ونظر فى عينيها نظرة طويلة وقال لها: نيڤين.. بتهربى من حبى ليه؟

فأجابت وقد امتلأت عيناها بالدموع: أنا باهرب من نفسى يا أكرم.. حرصا على مستقبلك.

– إنت مستقبلى.

– أهلك حايقولوا عليك إية؟ الشركة حاتقول عليك إية؟ الركاب حايقولوا عليك إية؟ إتجوز أرملة تاجر مخدرات؟

– ده أنت مغشوشة قوى فى أهلى. أبويا رئيس حى انقبض عليه بتهمة الرشوة، وعمى مقاول حرامى بيبنى مدارس بتقع قبل ماحد يدخلها، انقبض عليه خمس مرات قبل كده.

– ووظيفتك؟

– وظيفتى إية؟! فى ستين داهية، ملعون أبو الوظيفة اللى تخلى الواحد يبعد عن حبيبته.

فى تلك اللحظة صاح بعض السكان: الأسانسير ياجماعة، إقفل الباب ياللى فوق.

فصعدا بالأسانسير إلى أن توقفا عند الدور الذى يسكنان فيه، دعاها للدخول عنده لتناول فنجان قهوة ولكنها رفضت فى دلال.

– لسه خايفة منى؟

– لا.. قلت لك خايفة من نفسى.. تعال أنت عندى.

فى تلك اللحظة ولأنه حريص وحذر، خشى أكرم أن تهاجم الشرطة شقتها فتجده عندها، من يعلم؟ أليس من المحتمل أن تكون قد ورثت المهنة عن زوجها؟! وهنا أسعفه ذكاؤه أن يقترح عليها اللقاء على أرض محايدة.. فوق السطوح!

لقاءات القمة بين السياسيين معذبة ومثيرة للتوتر، أما لقاءات القمة بين المحبين التى تحدث عادة فوق أسطح العمارات وسط غابة "إريالات" وأطباق التليفزيون، فهى لذيذة ومنعشة. فى هذا اللقاء تأكد أكرم ونيفين أن أحدهما لا يطيق البعاد عن الآخر

فقررا أن ينزلا على الفور للبحث عن أقرب مأذون.

فى تلك اللحظة الجميلة المشحونة بالأمل فى حياة زوجية سعيدة، فى تلك اللحظة، لحظة اتخاذ القرار بالزواج من شخص تحبه، أقول فى تلك اللحظة التى - يامسكين - ستمر بها ذات يوم، أو التى مررت بها واكتشفت فيما بعد أنك كنت مخطئا، وأنك كنت تخدع نفسك، فى تلك اللحظة، المليئة بالوهم الجميل، حدث الزلزال - كان قويا فظيعا مروعا لا تقل قوته عن ٧ ريختر، وانتقل البطلان فى جزء من الثانية من ضياء الحب الساطع فوق السطوح إلى ظلام البدروم الدامس تحت أنقاض العمارة. سقطت العمارة الضخمة محدثة صوتا كهزيم الرعد، تحولت إلى كومة تراب، وتصاعدت منها سحابة كثيفة من التراب غطت سماء القاهرة كلها (لن يحتاج المخرج للخدع السينمائية فى هذه اللقطة، أى تصوير للقاهرة من بعيد فى أى وقت ستظهر فيه سحابة التراب المطلوبة) لحسن الحظ لم يكن أحد من السكان فى العمارة لأسباب سنتولى شرحها فى السيناريو (سنقول أنهم ذهبوا جميعا للادلاء بأصواتهم فى انتخابات المجليات واصطحبوا معهم أطفالهم) فجأة وجد أكرم ونيفين نفسيهما فى ظلام دامس تحت العمارة، لقد وقعا فى البدروم وأطلال العمارة كلها فوقهما، ولكن الحب أمدهما بطاقة هائلة للمقاومة والأمل.

بدأ أكرم يستكشف المكان متحسسا طريقه بين الزلط والطوب

والأسمنت الذى اتضح أنه تراب إلى أن عثر على مولد كهربائى صغير أضاء به المكان. كما عثر على ثلاجة بها أطعمة وبعض زجاجات المياه. عثر أيضا على أدوات حلاقة (لكى نرد على تساؤلات المتفرج عندما يشاهد البطل يخرج من تحت الأنقاض حليق الذقن) كما سيتمكن أيضا من العثور على سشوار وأدوات ماكياج (طبعا البطلة ستصر على الظهور بكامل مكياجها وتسريحة شعرها وعلينا أن نوجد المبرر لذلك) وتمضى الحياة بينما المياه تتناقص باستمرار والموت يقترب منهما، ولكن ذلك لم يمنعها من أن ترقص له وحده رقصات جميلة، عذبة، محمومة ثم - فجأة - تحتضنه وتموت.

لم تمت جوعا وعطشا، بل ماتت بسبب إصابة فى رأسها أخفتها عنه لكى لا يتكدر مزاجه. يبكى أكرم، ثم يقسم أمام جثة حبيبته على الانتقام من كل من تسبب فى موتها، يغنى أغنية حزينة، يغنى باللغة الفرنسية، يغنى بصوت قوى فيسمعه أعضاء بعثة الإنقاذ الفرنسية فتتمكن من إنقاذه. سلطت كل أجهزة الإعلام أكبر كمية من الضوء على أكرم فقد تجسدت فى شخصه معجزة مذهلة، حاولت بعض الأحزاب المهتمة بالمعجزات أن تضمه لصفوفها ولكنه رفض، عرضوا عليه شقة ولكنه رفض أيضا وصرح بأن هناك من هم أكثر منه حاجة إليها وفضل أن ينام فى حظيرة الطائرات مع طائرته، لم يكن أحد يتصور أن كل تفكير

أكرم قد تركز فى نقطة واحدة هى: الانتقام.

طلب أكرم من رؤسائه فى شركة مصر للطيران أن يعمل على خط اليابان وهونج كونج وشرق آسيا فوافقوا له على ذلك متصورين أنه دخل فى مرحلة تصوف وعشق لروحانية الشرق القديم، ولكن الحقيقة التى أخفاها عن الجميع هى أنه كان يتدرب على الكراتية والننجا والكونج فو، كان يعد نفسه للانتقام الكبير.

كتب كشفا بأسماء كل هؤلاء الذين أفقدوه شقته وحبيبته وعلى رأسهم صاحبة العمارة الحاجة اعتماد، المقاول، مهندس التصميمات، مهندس التنفيذ، رئيس الحى، البائع الذى باع الحديد والأسمنت المغشوش المستورد، مسئول الجمرك، مسئول وزارة الصناعة... إلخ، وصل عدد أسماء المسئولين إلى ألف اسم. ترك شركة مصر للطيران، بحث عن الحاجة اعتماد، أغراها بشبابه، طلقها من زوجها وتزوجها هو، عمل فى ميدان المقاولات، فتح مطعما فاخراً يأكل فيه كل المسئولين الذين جاءت أسماؤهم فى كشف الإنتقام، فتح محلا للحلويات لتغذية احتياجاتهم فى الأفراح وأعياد الميلاد، استورد كل ما هو مغشوش من مواد البناء، استولى على مساحة كبيرة من الأرض بوضع اليد وبوضع الرجل، بنى عليها عدة عمارات بها ألف شقة، أعطى شقة مجانا لكل مسئول جاء اسمه فى كشف الانتقام الرهيب، سكن الجميع شققهم فى يوم واحد بمن فيهم زوجته اعتماد، وبدأ تنفيذ المرحلة

النهائية من الخطة، دعا إلى مؤتمر صحفى عالمى ومحلى، أبلغهم أن لدية أدلة على أن هناك زلزالا سيحدث فى وقت معين ومكان محدد سيقودهم هو إليه. فى الموعد المحدد ذهب بهم إلى منطقة العمارات، كان قد اتفق مع صديق له يعمل فى إدارة المطافى أن يعطيه سلم حريق طويل جداً ، صعد إلى أعلى السلم الذى نصبه أمام أول عمارة ، أمسك بالميكروفون وصاح: أيها السادة، كل سكان هذه العمارات هم المسئولون عن تدمير حياتي.. ولأنهم لا يخشون إلا الزلازل، لذلك قررت أن أكون زلزالا.. الأخلاق، الشرف، العرف، القانون.. كلها عاجزة عن ردعهم أو معاقبتهم لذلك قررت أن أكون زلزالا وأعاقبهم بنفسي.. أيها السادة، أنظروا إلى قبضة يدى.. أنا زلزال.

قالها بصوت قوى مفزع بعث الرجفة فى قلوب رجال الصحافة والإعلام المحتشدين تحت السلم بجوار العمارات، ببطء ينحنى أكرم إلى الوراء قليلا ثم يندفع موجها لكمة هائلة لعمود الخرسانة الرئيسى فى أول عمارة فتنهار على الفور وتسقط على العمارة المجاورة فتسقط هى الأخرى، وهكذا تمكن أكرم بقبضة يده وحدها من إسقاط العمارات كلها وكانها قطع "دومينو".

ينزل من على السلم بهدوء ويسلم نفسه لرجال الشرطة الذين يقبضون عليه ويختفون به سريعا قبل أن يفتك به الجمهور. وهنا يحدث أخطر مشهد فى تاريخ السينما فى مصر والعالم، وهو

المشهد الذى سيظل محفوراً فى أذهان المتفرجين إلى الأبد. بعد أن ينحسر التراب والغبار نفاجأ بالحاجة اعتماد تخرج سليمة من تحت الأنقاض، وواحدا بعد الآخر يخرج بقية المسئولين الألف أحياء بلا خدش واحد ويمضون فى طريقهم إلى مكاتبهم ومقار عملهم.

عندما يعرف ذلك أكرم وهو فى السجن يبكى بحرقة ويفكر فى طريقة أخرى للانتقام، وهكذا نستطيع تقديم الجزء الثانى من الرقص مع الزلزال، وفى كل مرة يفشل فيها أكرم فى الانتقام من هؤلاء السادة. نقدم جزءا جديداً إلى أن يموت أكرم من الغيظ والتعاسة والغم والإحباط.

محكمة العبث العربي

فى جلسة كذا بتاريخ كيت بمبنى محكمة العدل بالكويت المحررة المنعقدة لمحاكمة الأشخاص المتهمين بالتعامل مع العدو، نودى على المتهم الأول:

- إسمك، سنك، مهنتك وعنوانك؟

● مصرى، عبدالله العربى، خمسون سنة، نجار مسلح عنوانى طرف والدى الحاج عربى كفر الهواش قبلى محافظة سوهاج مصر.

- تقصد جمهورية مصر العربية؟

● نعم ياسيدى.

- ماهى الشهادات التى حصلت عليها؟

● أنا راسب إعدادية ياسعادة القاضى ولكننى أقرأ كثيرا وأشاهد الأفلام والمسرحيات وأقرأ الصحف وأستمع لكل الإذاعات.

- منسوب اليك تهمة التعامل مع العدو وتعريض سلامة وشعب الكويت للخطر.

● لم يحدث ياسيدى لابد أنكم تقصدون شخصا أخرأو لعله تشابه في الأسماء لم يحدث من قبل أن تعاملت مع العدو أي عدو لسبب من الأسباب.

- أين محاميك؟

● لم أوكل محاميا لأننى واثق من براءتى ولأنه ليس معى نقود.

- ستعين لك المحكمة محاميا، هل يوجد محام هنا يتطوع للدفاع عن المتهم؟

(أحد المحامين ينهض فى القاعة)

- أنا حاضر عن المتهم.

● إتفضل ماهو دفاعك؟

- أطلب الرأفة لموكلى..

- أرجوك ياسيادة القاضى لست أطلب الرأفة أنا أطلب العدل وأنا أشكر السيد المحامي لتطوعه للدفاع عنى ولكنى أطلب أن أتولى الدفاع عن نفسي والأمر متروك لعدالتكم التى أثق بها.

● إتفضل..

- بغض النظر عن مهنتى المتواضعة فإنه من الممكن اعتبارى مثقفا ومؤهلا لفهم مايحدث فى المنطقة العربية بحكم السن

والخبرة وقراءة الصحف والاستماع الى الاذاعات وقراءة بعض الكتب ولذلك فأنا مؤهل للدفاع عن نفسى واسمحوا لى فى البداية أن أستوضح نقطة واحدة .. من هو العدو الذى أنا متهم بالتعاون معه؟.

● بالرغم من أنه ليس من حقك توجيه الأسئلة للمحكمة غير إنى سأجيبك.. العدو العراقى.

- العراقى ياسيدى؟! العراقى؟ إن لدى قائمة طويلة بأعداء الأمة العربية وأنا احتفظ بهذه القائمة حيث أننى أحد أفراد الأمة، لقد كنت حريصا طوال عمرى على معرفة أعدائى لكيلا أقع فى المحظور فى أسفارى أو فى تعاملاتى اليومية أعداؤنا هم اسرائيل والصهيونية العالمية والإمبريالية العالمية والاستعمار وأذناب الاستعمار والرجعية وفلول الرجعية والشيوعيون الملاحدة والديكتاتورية وعدو آخر أسمه الفاشية وبصراحة لست أعرف من هو هذا العدو ولا أين هى الدولة التى يحكمها، هذه القائمة أعددتها بعناية على مر الأعوام بعد قراءتى المتأنية للصحف واستماعى الدائم لكل محطات الإذاعة العربية. لم يحدث من قبل أن قال لى أحد أن العراق داخل ضمن دائرة الاعداء.

● العراق كبلد وشعب وأمة ليس بالطبع داخلا فى دائرة

الاعداء..

- فهمت ياسيدي، تقصد أن العدو هو جيش العراق هذه معلومة جديدة على تماما أخفتها عنى الإذاعات والصحف أقسم أن هذه هى المرة الأولى التى أعرف فيها أن جيش العراق مكون من العناصر المعادية..اسرائيل والصهيونية والاستعمار والرجعية والديمقراطيتى..

● إفهم يامتهم.. المحكمة لاتقصد جيش العراق العربى الذى نفخر به..

- الذى تفخر به ياسيدى؟ هل تحاكمنى الآن بتهمة التعاون مع جيش عربى تفخر به؟

● يا متهم لا تجعل صبر المحكمة ينفد تعبير " الذى نفخر به" تعبير لا يعنى شيئا نقوله دائما عندما نذكر أى شئ عربى.

- إننى أربأ بالمحكمة الموقرة أن تقول الفاظا لا تعنيها، إن الكلمات الآن فى هذه القاعة لابد أن تعنى شيئا حقيقيا سوف يكون أمرا بشعا أن يصدر علىَّ حكم من أى نوع مستندا إلى ألفاظ لا معنى لها.

● معك حق المحكمة تأسف لاستخدامها جملة "الذى نفخر به" ماتقصده المحكمة هو جيش صدام حسين، أنت متهم بالتعاون مع جيش صدام حسين وتعريض سلامة وشعب الكويت

للخطر..

- معذرة ياسيدى القاضى قوانين النشر في مصر وقانون الرقابة على المصنفات الفنية يمنع الحديث عن الرؤساء والملوك بغير توقير من الأفضل أن أقول جيش السيد الرئيس صدام حسين، إن له تسعة وتسعين إسما كما تعلمون عدالتكم ولكنى سأكتفى باستخدام كلمتي السيد الرئيس فقط، من يعلم أليس من الجائز بعد أن يتم الصلح بينكم جميعا أن أجد نفسى فجأة فى بغداد متهما بإهانة الرئيس صدام بذكر إسمه مجردا كما لوكنت أتحدث عن أحد أصدقائى؟

● حسنا أنت تضيع وقت المحكمة ومع ذلك سنذهب معك لابعد مدى، سنعطيك فرصتك كاملة فى الدفاع عن نفسك، أنت متهم بالتعاون مع جيش السيد الرئيس صدام حسين..

- أشكرك بقوة ياسعادة القاضى هذه معلومة هامة جدا.. أطلب إثباتها فى محضر الجلسة، أن هناك شخصا فردا، إنسانا مواطنا عنده جيش، جيش صدام.. تماما كما نقول عمارة أنور وجدى ودكان الحاج أحد وفستان سميرة.

● أثبت هذه المعلومة يا كاتب الجلسة، ماصلة ذلك بدفاعك عن نفسك؟

- لاشئ، فقط أنا مندهش لأن هذه الأمة العربية المجيدة تسمح

لفـرد واحـد بأن يكون لديه جـيش باسـمـه يمارس عليـه حق الملكية كما لوكان سيارة أولنش أو عمارة وبعد ذلك تأتى هذه الأمة لتـحاكمنى بتهمـة التعاون مـع هذا الجيش ألم تتـعاون حكومـات الامة العربية كلهـا مع جيش صـدام فى مـغامـراته الوحشية.. هل ستتولون مـحاكمة كل الحكومات العربية هل ستحاكمون أنفسكم فى جلسات قادمة؟

● لا تظن أن سعة صدرنا وقدرتك على الالتفاف حول الموضوع ستـمـيع القـضـيـة، أنت مـتـهـم بالتـعـاون مع قـوات إل..إل.. الاحتلال.

- الاحتـلال العراقى الشـقـيق ياسـيـدى القاضى، الشـقـيق حـتى يمكن التـفـرقة بينه وبين الاحـتـلال غـيـر الشـقـيق، الانجليزى والفرنسى والإسرائيلى. مـاذا تعتقـد أنى فـعلت ياسـيـدى هل دللت قوات الاحتلال على ثغرات فى دفاعاتكم لتـأخذكم على غرة هـل سلمتـهـم خرائط بمواقع تحصـيناتكم هل أرشـدتهم على الطرق الآمنة فى حـقـول ألغـامكم؟ جيش صـدام، أقـصـد السـيـد الرئيس صـدام لم يكن بحـاجـة لخـدمـاتى لكى يفـعل مافعل..

● إذن ماذا فعلت؟.. لماذا وجهوا إليك هذه التهم؟

- المسألة باختصار شديد ياسيدى القاضى أن ضابطا عراقيا

قبض عليّ وبعض زملائى وأمرنا أن نعمل فى حفر الخنادق ونقل الذخائر .

● لماذا لم تمتنعوا؟

- تقول نمتنع ياسيدى؟ لقد شاهدتهم يقتلون البشر فى الشوارع بنفس البساطة التى تُقتل بها الكلاب في شوارع قريتى.

● يعنى تعاونت مع الأعداء خوفا من الموت.

- والله العظيم ليس خوفا من الموت.. ولكن خوفا من التعذيب.. ومن فضلك لاتضع الكلمات فى فمى أنا لم أتعاون مع الاعداء أنا استسلمت لتهديدات الأشقاء.

● ومارأيك الآن؟ هل مازلت تعتبرهم أشقاء، ألم تقرر بعد اضافتهم لقائمة الأعداء؟

- بصراحة ياسيادة القاضئ لقد مزقت قائمة الأعداء التى ضيعت عمرى فى كتابتها ومذاكرة ماجاء بها وحفظها عن ظهر قلب كان أبى يقول لى منذ زمن بعيد أن أعداء الإنسان ثلاثة: الفقر والجهل والمرض. الآن فقط بدأت أؤمن برأيه بل وبدأت أعتقد أن أيه محاولة لتحويل أنظارنا عن هؤلاء الأعداء الثلاثة فيها القضاء على حاضرنا ومستقبلنا.

● ولكن جيش صدام الذى دمر وأحرق وقتل وعذب واغتصب

وشرد لم يكن فقيرا ولا جـاهلا ولامريضـا.

- أختلف معك ياسيدى القاضى فقر الناس فى العراق هو الذى صنع هذا الجيش إلغنى وجهل الأنظمة والحكومات فى المنطقة العربية هـو الذى سـمح له بالنمـو والتـوحش والمرض العـقلى متمـثلا فى الكلمات الطنانة والأفكار التى لامـعنى لها والنفـاق والمقـامـرة بـحـيـاة البـشـر كل ذلك دفع ذلك الجيش للتـحـرك. الجـهل والفـقـر والمرض النفـسى والجـسـدى هـى التـى دفـعت البسطاء للخروج فى مظاهرات تمجد الغزو والقتل والسرقة والنهب والاغتصاب هل ستحاكمون هؤلاء البشر؟ هؤلاء الذين كتبوا وعبأوا الرأى العام ضدكم، هؤلاء الذين مجدوا مـا فعل الرئيس صـدام حـسين هل سـتـحـاكمـونهم؟ بالطبع لا.. لأنهم بعيـدون عن أيديكم أنا فقط الذى احاكم هنا لأننى ضـعـيف لاحول لى ولاقوة.ومـعظم الأنظمة فى هذه المنطقة عاجزة عن ضرب الحـمـار لذلك تكتفى بضرب البردعـة.. وأنا البـردعـة.. بردعة مـريحة جدا كمـا ترى.. قادرة على امتصاص الضربات من كل نوع.

● أنت عاجز عن الدفـا ع عن نفسك.. كان من الواجب ان توكل لك مـحاميا..

- تقصـد كان من الواجب منعى من الكلام أرجوك ياسـيدى دعنى

أتكلم.. الفقر والجهل والمرض العقلي والنفسي هي العدو الوحيد لهذه الأمة واقسم لك أنني لم أتعاون مع هذا العدو الوحيد ثلاثي الأضلاع والوجوه، هو المسئول عن كل ماحدث وكل ماسيحدث، الأغنياء يحرصون على إفقار البشر والجهلاء يطلقون على أنفسهم اسم العلماء من أجل إقناعنا بالاستزادة من الجهل. والمرضى العقليون يعملوننا الحكمة كما لو كان الجميع قد اتفقوا على نفى العقل، حلقة جهنمية ياسيدى القاضى لاأحد يريد لنا أن نخرج منها، نعجز عن مواكبة العلم فنخشاه ونفزع منه ثم نكرهه ونعاديه ونلجأ للجهل الجميل نجمّل به حياتنا عند ذلك نفقد القدرة على الزراعة والصناعة والبحث العلمى يعنى نفقد القدرة على التعاون مع الحياة فنمد أيدينا ونستجدى الآخرين نستجديهم رغيفا وطائرة مقاتلة ونقع فى هوة الديون ثم تتحول حياتنا إلى جحيم عند ذلك نلجأ للأحجبة والتعاويذ والتهاويم ونتخصص فى علوم الجان. الطريقة الوحيدة التى نعالج بها الجهل هى المزيد من الجهل والطريقة الوحيدة للتخلص من البلاهة هى فى إنتاج المزيد من البلاهة وفى النهاية تبحثون عن ضحية .. عن بردعة فلا تجدون سواى.. أنا حزين ياسيدى وتعس وخائف وغاضب ومتألم لكن كل ذلك لايدفعنى لطلب الرحمة والشفقة، أنا أطلب العدل فالعدل أعظم مظاهر العقل أى أننى

أطلب العقل.. وأنا أثق فى عدالتكم أقصد أننى أثق فى قوة عقلكم.

● الحكم بعد المداولة.. رُفعت الجلسة.

محكمـــــة

المتهم يلقى بالتهمة على الفقر والجهل والمرض ويحملها مسئولية ماحدث والمحكمة توافقه على ذلك وتقدر أنه تعس وخائف وغاضب ومتألم كما تحييه لإيمانه بالعقل وتحكم بنفيه الى خارج المنطقة العربية فوجوده فيها خطر عليها وعليه. خطر عليها لأن العدوى قد تسرى منه لبقية المواطنين فيؤمنون بما يتناقض مع الأساسات المبنى عليها مجتمعاتنا وخطر عليه لأن حديثه الدائم عن العقل ومحاولته للتخلص من الكلمات التى لامعنى لها تجعل من المحتم القضاء عليه.

رُفعت الجلسة.

الغش في مدرسة الجهاد

فشلت جهود الأمن فى منع الغش الجماعى بلجان امتحان الإعدادية بمدرستى الكوم الاحمر والجهاد بالبدارى. استخدم الأهالى مكبرات الصوت لإذاعة إجابة الاسئلة، وأشهروا الاسلحة الآلية لمنع تدخل الشرطة، وكان اللواءان محمود عنتر مدير امن اسيوط ونائبه أحمد المرشدى قد تلقيا بلاغا من رؤوساء اللجان بتجمع الاهالى حول المدرستين وقيامهم بإذاعة إجابات الأسئلة على الطلاب. لم تتمكن قوات الأمن من السيطرة على الاهالى. "الوفد فى ١٢ يونيو ١٩٩٣.

الدنيا لا تكشف عن أسرارها إلا لمن يفكرون فيها بعمق، والكلمات لا تخدع من يتعاطون الفلسفة والأبعاد الواضحة للعيان فى أية واقعة قد تكون بعيدة تماما عن الصدق والحقيقة، والخطر كل الخطر فى تصديق الشكل المعروض بغير بذل مجهود لفهم الجوهر.

أنا أزعم أن الخبر السابق كاذب من أساسه، هذه ليست محاولة للغش الجماعى فشلت فى منعها الشرطة، بل هى حلقة

فى سلسة صراع الإنسان من أجل البقاء فى مواجهة كوارث الطبيعة مثل البراكين والزلازل والحرائق والفيضانات والامتحانات. ولو أننى كنت مسئولا عن صفحة الحوادث فى الوفد لأعدت صياغة الخبر على النحو التالى: خرج أهالى البدارى بالأمس عن بكرة أبيهم يحملون المدافع الرشاشة للدفاع برجولة عن مستقبل أولادهم وذلك بتمكينهم من الحصول على الدرجات النهائية فى امتحان الإعدادية. من المعروف أنه فى العام الماضى كان الرصاص يلعلع فى البدارى والقرى المحيطة بها، ونتيجة لذلك كان من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- الانتظام فى الدراسة أو العثور على مدرس حكومى أو حتى خصوصى. وكان الاهالى يعتقدون أن الحكومة تقديرا منها للظروف الحالية ستمنحهم الشهادة الإعدادية بدون امتحانات ولكنهم فوجئوا بلجان ومراقبين ومفتشين من خارج المنطقة يهبطون على البدارى ويظهرون روحا عدائية ضد الاولاد أثناء الامتحانات، وصلت إلى حد منعهم من التعاون والتشاور مع بعضهم البعض أثناء الامتحانات متجاهلين عن عمد القاعدة الإنسانية "ما استحق أن ينجح من غش لنفسه فقط" وعلى الفور نظم الاهالى أنفسهم واستطاعوا الحصول على ورقة الاسئلة وبمعونة بعض خبراء التعليم من أهل الإقليم توصلوا للإجابات النموذجية ثم اخذوا يذيعونها على الطلاب من خلال مكبرات الصوت القوية التى

حاصرت اللجان من كل جانب. وفجأة وصلت قوات مكافحة الغش المحمولة جوا واتخذت مواقعها فى الحقول القريبة من اللجان ثم نصبت مدافعها ذات العيارات الكبيرة على قمم الجبال والتلال ولكن أولياء الأمور المصممين على النصر أو الشهادة.. الإعدادية، نظموا صفوفهم فى مواقع دفاعية حصينة تحمى الطلاب، ومكبرات الصوت لم تتوقف لحظة واحدة عن إذاعة الإجابات أدرك قائد قوة الاقتحام من تنظيم خطوط المدافعين ونوعية الأسلحة، ومن مواقع اللجان وطبيعة أرض المعركة أنه مقدم على مذبحة كبرى سيضيع فيها جنوده، ويضيع فيها أهل البلدة، فدفعته ثقافته العريضة وخبرته القتالية إلى التفكير فى أنه يمكن تجنب هذه المذبحة بإعمال العقل واللجوء للتفاوض. رحب الأهالى بالتفاوض وأرسلوا شيخا وقورا يحمل علما أبيض، واحتراما لقواعد القتال النبيلة خرج قائد القوة بنفسه بعد أن ترك سلاحه الشخصى وهو يلوح بمنديله الأبيض وتقابل الاثنان فى "خص" يتوسط ساحة المعركة.

قال القائد: سيدى، أوكد لك أنه لو ترك لى الامر شخصيا لتركت المصريين جميعاً يحصلون على الإعدادية والثانوية العامة، بل على كل أنواع الدبلومات والليسانسات والبكالوريوسات بدون امتحانات أصلاً، ولكنك تعرف أننى جندى فى معركة، وسأنفذ الأوامر الصادرة لى بغض النظر عن عواطفى أو آرائى

الخاصة..

- ما هى الأوامر التى صدرت إليك؟

● الحفاظ على الأمن أثناء الامتحانات.

- الحمد الله.. هل ترى الآن أى إخلال بالأمن؟!.. نحن نذيع على الأولاد الإجابات فى هدوء وانضباط.

● ولكن هذه عملية غش جماعى.

- هل تعتقد بالفعل أن أهالى البدارى غشاشون؟ وأنهم على استعداد للتضحية بأرواحهم ليمكنوا أولادهم من الغش؟ لا طبعاً، هم يريدون لأولادهم أن يحصلوا على الإعدادية.. هذه هى المسألة ببساطة.. لا شأن لذلك بأى قضية أخلاقية..

● هذا معناه أنهم سيحصلون على شهادة تثبت أنهم يعرفون اشياء هم لا يعرفونها فعلا..

- تقصد أنهم يغشون أنفسهم؟ أنا أوافقك على ذلك، والسؤال الآن هو: هل يعاقب القانون الشخص الذى يغش نفسه أو ينصب عليها؟ هل تدخلت الحكومة من قبل لمنع البشر من أن يغشوا أنفسهم؟ لم نسمع عن ذلك.. القانون يمنع الآخرين من غشك والنصب عليك، لماذا تريد ياسيدى التدخل لمنع عملية الغش هذه بفرض أنها عملية غش وأنت تعرف أننى لا أوافقك على هذه

● ياسيدى الشيخ الوقور، قد تنتصر على فى لعبة الكلمات والكلمات المضادة، ولكنى ألجأ لحكمتك وضميرك، القضية أكبر من كل ذلك، إنها قضية المعرفة، وتحصيل المعرفة.

– وأنا أيضاً ياسيدى القائد ألجأ لحكمتك وضميرك، مافائدة المعرفة؟ هؤلاء الأولاد سيعينون فى الحكومة، هل الحكومة فى حاجة لبشر يعرفون شيئاً؟ ألا تعترف الحكومة بأنها تعين الملايين بينما هى ليست فى حاجة إليهم؟ يعنى باختصار هى ليست فى حاجة لبشر يعرفون شيئا، لأنهم لن يكلفوا "بفعل" شئ... هى تطلب منهم أن يكونوا حاصلين على الإعدادية والثانوية والليسانس والبكالوريوس.. حسنا، سيحصلون عليها.

● بالمدافع الرشاشة؟

– لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والله لو كانت لدينا مدرعات لاستخدمناها.

● ولكنى متى يتعلم الناس؟ وكيف يتعلمون وكيف نتأكد أنهم قد تعلموا؟

– سيحرص الناس على ذلك ياسيدى عندما يكتشفون أن علمهم أمر مطلوب، عندما يحترم المجتمع العقل، والعلم والتعليم، فى هذه الحالة سيكون التعليم – مثل التدخين – مسئولية كل

متعلم.. لا تخدع نفسك ياسيدى، ما نفعله صحيح ومنطقى وشريف أيضاً.

● لنفرض الآن أننى أطلقت النار على مكبرات الصوت هذه.. ماذا ستفعلون..؟

- سندافع عن مستقبل أولادنا بإطلاق النار عليك وعلى رجالك.. وأنت تعرف بالطبع أن فرصة المدافع أكبر بكثير من فرصة المهاجم.

وهنا أراد قائد القوة تحويل دفة المفاوضات إلى مسار عاطفى بإدخالها دائرة الكبرياء والرجولة فقال: ولكن ما هو شعوركم كرجال وأنتم تعلمون أن أولادكم حصلوا على الإعدادية ولا يعلمون شيئاً عن المنهج؟

فابتسم الشيخ وأجاب: ياسيدى القائد، أنت تتكلم عن التعليم بينما نحن نتكلم عن الإعدادية.

● ولكن أولادكم بهذه الطريقة يحرمون أنفسهم من فرصة العمل فى الشركات الخاصة.. هذه الشركات تطلب من المتقدمين إليها أن يكونوا متعلمين.

وهنا تهللت أسارير الشيخ وقال: أخيراً ياسيدى القائد أنت تكشف عن جوهر القضية، لو أن هؤلاء الأولاد التعساء وأولياء أمورهم الأكثر تعاسة كانوا يعرفون أن هناك فرصة للعمل فى

مشاريع خاصة، لالتهموا المناهج وذاكروها بأظافرهم وأسنانهم.. إنها فعلاً قضية الحرية الاقتصادية.. فى مجتمعات الاقتصاد الحر.. الناس أعقل من أن يغشوا أنفسهم.. بالطبع هناك غش وغشاشون فى تلك المجتمعات ولكنهم ليسوا على استعداد لحماية أنفسهم بالمدافع أو حتى بأقلام الرصاص.. إذا ضبطوا يغشون فسينهارون على الفور ويخرجون منكسى الرؤوس مجللين بالعار كما كان يحدث على أيامى.. هل تذكر تلك الجملة الخالدة التى لم نعد نقرؤها فى صفحة الحوادث "وبمواجهة المتهم بالأدلة الدامغة، انهار واعترف" كان الغشاش أيضاً ينهار ويعترف ويطلب الصفح والغفران لأن المجتمع نفسه كان يجرّم الغش ويحتقر الغشاشين..

وهنا شعرالقائد بالعجز واليأس فقال: كلانا فى ورطة.. ماذا نفعل؟

– لقد انتهت الورطة ياسيدى، !لعلك لاحظت أن مكبرات الصوت سكتت الآن.. لقد انتهى الأولاد من تقديم الإجابات الصحيحة، غداً نتقابل فى نفس المكان.. ونتفاوض إلى أن تنتهى أيام الامتحانات على خير.. ولكن لى عندك خدمة..

● إتفضل..

– هل تسمح بإيصال رسالة لرؤسائك.. لماذا تريدون منع الغش فى الامتحانات فقط؟ لماذا تتشطرون على هؤلاء التعساء

الذين يحاولون الحصول على الإعدادية بلا تأهيل حقيقى بينما الامر متاح بلا تدخل من قوات الامن للحصول على جوائز الدولة بلا تأهيل حقيقي.. مثلا.. وإذا أرادوا منى أمثلة أخرى على حالات الغش فاطلب منهم أن يرسلوا لي طنا من الورق وبرميلا من الحبر الأسود، لأننى لا أحب الأقلام الجافة!!

رقصة المسطرة

المدرسة أمامك والورشة خلف واعلم أنك في هذه الدنيا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام.

في الكلمات السابقة تحريف بسيط لمقولة طارق بن زياد، العدو أمامكم والبحر من خلفكم.. إلخ التي قالها لرجاله بعد أن عبروا البحر إلى الشاطئ الأسباني، وبعد أن أشعل النار في الأسطول الذي نقلهم لكي يثبت لهم أنه لا سبيل للتقهقر ولا مفر من القتال.

هذا هو ما شعرت به في طفولتي وما ظل يلازمني حتى الآن، أنني أجلس إلى مائدة أقامها اللئام. هذا إذا افترضنا أن اللئام يقيمون المآدب، فالتعليم مسئولية كل متعلم، هذه معركتك أنت وحدك.. استيقظ في الصباح، تناول طعام الأفطار ثم أذهب إلى المدرسة، حل مشاكلك مع الحروف والأرقام والخرائط والرسومات. واحصل على الشهادة وبذلك تنجو من الورشة وتضمن أن تكون أفنديا. أما إذا فشلت في الحصول على الشهادة فالورشة أي ورشة لأي مهنة ستكون في انتظارك. وبذلك

تنضم لطائفة بدأت تكتشف وجودها ويطلقون عليها تعبيراً غامضا هو "مانفعش فى التعليم" أو "مامشيش فى الدراسة" الآن فقط بدأ عقلى يكتسب الملامح الاساسية لعقل المجتمع نفسه بكل أفكاره الخاطئة، العمل عقوبة للفاشلين فى الحصول على الشهادة.

ولكنى ناجح فى دراستى والحمد لله، بل وتمكنت من الوصول إلى أخطر مراحل التعليم التى يمكن تصورها فى ذلك الوقت، مرحلة الدراسة الابتدائية، وهى مرحلة خطيرة، لأنه من الممكن عندما تحصل بعد أربعة أعوام على الشهادة الابتدائية أن تلتحق بوظيفة حكومية وتحتل بذلك مكاناً هاما فى هذه الدنيا. كنت ضمن أول دفعة التحقت بمدرسة فاروق الابتدائية الجديدة بعد تحويلها من مدرسة أولية إلى مدرسة ابتدائية. ويبدو أن كل العاملين بالمدرسة كانت تسيطر عليهم عقدة التفوق واثبات الذات فى مواجهة مدرسة دمياط الابتدائية القديمة بمالها من عراقة وسمعة طيبة. وعلى الأرجح استطاعوا أن يعكسوا على طلبة المدرسة ذلك الشعور بالانضباط والرغبة فى التميّز. الشئ الوحيد الذى كان من حق طلبة المدرسة الابتدائية القديمة أن يفخروا به علينا والذى كان من المستحيل أن تجاريهم فيه مدرستنا هو أنها كانت تقدم لهم فى وجبة الغذاء، لحما، وأرزاً، وخضاراً، وفاكهة وفوطة بيضاء نظيفة. وكانت هناك أيضا أقوال شائعة بأنهم

يأكلون بالشوكة والسكين.

يا إلهى. لحم وأرز وخضار وفاكهة وشوكة وسكينة وفوطة بيضاء نظيفة.؟!..

تماما مثل أبطال الأفلام الأجنبية؟!..

نعم بل أن "المنهج" عندهم يشمل الفراخ والسمك أيضا. كان ذلك يشعرنا بالاحباط ويقدر من الاحساس بالضآلة أمام تلامذة الابتدائية القديمة.

غير أن تفوقنا العلمى كان يشعرنا بالرضاء عن النفس فى مواجهة تفوقهم الغذائى ويجعلنا نقبل فى قناعة وسرور ما تقدمه مدرستنا من فول مدمس وبيض. وحلاوة طحينية وجبن أصفر لذيذ وفاكهة أيضا. من الأولاد الذين كانوا معى فى ذلك الوقت والموجودين الآن فى دائرة الضوء، عباس الطرابيلى مدير تحرير جريدة الوفد وحلمى سالم المحرر بدار الهلال. لم أكن متفوقاً فى الفترة الأولى من السنة الأولى، ولكنى سعدت جداً عندما أعطونا شهادة الفترة الأولى ذات الورق الأزرق المقوى والأختام والتوقيعات ، هأنذا قد حصلت عليها، مما ضاعف من سعادتى إننى كنت ناجحا فى كل المواد، لاكحك أحمر، نظر أبى فى الشهادة باكتئاب فعدد التلاميذ فى الفصل هو ثلاثون وكان ترتيبى هو الرابع والعشرون. قال أبى: المجموع قليل قوى.. أمال

الأول مجموعه كام؟

رددت عليه بثقة وكبرياء: ماحدش طلع الأول.

ابتسم فى اشفاق ولم يقل شيئا. لم أكن أعرف أن كل مجموعة من البشر توجد فى مكان وتكلف بعمل ما، يوجد بينهم شخص هو أكثرهم جهداً وتحصيلا وأن هذا الجهد وهذا التحصيل يترجمان إلى درجات فإذا كانت أكثر من درجات الآخرين، يكون ترتيبه الأول. لم أكن أكذب على أبى فقد كنت أتصور أننا جميعا في الفصل متساوون فى الدرجات وبالتالى متساوون فى الترتيب. أو لعلى كنت عاجزاً عن هضم فكرة أن هناك تلميذاً آخر فى الفصل أفضل منى، ويبدو أن خجلى من كذبتى، تلك الكذبة الجاهلة كان كبيراً لدرجة أنها ظلت محفورة فى ذاكرتى حتى الآن. ويبدو أيضا أن رغبتى فى التكفير عن هذه الكذبة دفعتنى فيما بعد لأن أبذل كل جهدى لكى أكون الأول أو على الأقل من العشرين الأوائل فى الفصل.

المدرسون فى مدرستنا كانوا يقومون بعملهم ليس بوصفه عملا كلفتهم به وزارة المعارف ولكن بوصفه عملا كلفهم به الله سبحانه وتعالى فالرغبة في الانضباط والكمال والاكتمال كانت تؤرقهم جميعاً وعلى رأسهم ناظر المدرسة الجاد الأنيق الذى كان يعطينا بعض دروس الجغرافيا والتاريخ خارج المنهج، وكان

يبهرنا بطريقته الراقية فى الشرح وبعلمه الغزير. تصورت فى ذلك الوقت أن وظيفة ناظر مدرسة ابتدائية هى أعلى درجة فى السلم الاجتماعى ويبدو أنها كانت كذلك بالفعل، تستطيع أن تسألنى وماذا عن ناظر المدرسة الثانوية؟

عند ذلك سأجيبك: هذا المنصب ليس تابعا للسلم الاجتماعى الذى أعرفه، هو تابع لسلالم أخرى وعالم آخر. هذا منصب غامض رفيع لايحتله بقية البشر الذين يمشون على الأرض ونشاهدهم فى الشوارع والأسواق.. مثل جلالة الملك مثلا. أنا أحدثك عن الأشخاص الذين يتكون منهم عالمى الصغير.

مدرس واحد كرهته ومازلت أكرهه حتى الآن، وعلى فكرة أنا لست من هؤلاء الذين يزعمون أنهم لايكرهون أحداً، فأنا أكره أعدائى وأكره الأوغاد والأشرار والأغبياء ويسعدنى جداً أن يذهبوا إلى الجحيم. لن أذكر اسم ذلك المدرس كيلا أسبب ألماً لأولاده. كان يدرس لنا العلوم والحساب، وفى طابور الصباح كان يفتش على نظافتنا، الشعر، الأظافر، لمعان الحذاء، كان يصيح بوحشية: أقلع الجزمة.. أمسكوه.. إرفع رجليك.

لم يحدث أن ضربت على قدمى، ولكنى كنت أشعر بالرعب الدائم من إمكانية حدوث ذلك لسبب قد لا يخطر على بال أحد. فناء المدرسة تحيط به البيوت وعند مد أحد التلاميذ كانت نوافذ

هذه البيوت تمتلئ بربات البيوت يستمعتون بالعرض الوحشى الذى يقدمه لهم هذا المدرس مجاناً. بالإضافة إلى أنه من الأمور المخجلة أن تخلع حذاءك فيبدو جوربك وقد رصعته الثقوب.

كنت أدرك على نحو غامض أن هذا الرجل يشعر بلذة خاصة عند ضرب الأولاد ولذلك حرصت على الإفلات من قسوته. ذات صباح مر على الطابور، كنت واثقا من نفسى، شعرى محلوق، أظافرى نظيفة ملابسى نظيفة، حذائى لامع، معى منديل، ولكنه وقف أمامى وتفحصنى بنظرة سريعة ثم سألنى فى استفزاز:

: فين الشراب؟

: شراب إيه؟

: مش عارف شراب إيه؟

: لا.. مش عارف شراب إيه؟

: الشراب اللى بيتلبس تحت الجزمة.. مش لابس شراب ليه؟

لم أكن أتصور أن الجوارب ضرورة من ضرورات الحياة. هى من الكماليات بالطبع مثل ربطة العنق، إن الأصل فى الأمور هو الحذاء فقط، أما أن أعاقب من أجل أشياء تكميلية لا لزوم لها فهذا معناه أن هذا الرجل الفظ يخترع مبرراً لضربى.

صاح بوحشية: إقلع الجزمة.

اعتدل المتفرجون فى النوافذ واستعدوا فى استمتاع وترقب لمشاهدج عملية :"المد" خرج ولدان عملاقان من سنة رابعة للأمساك بى وتهيئتى للضرب، ستقابل دائما فى حياتك أشخاصا يسعدهم أن يتطوعوا للأشتراك فى جلدك أو صلبك بلا أى سبب واضح سوى الرغبة فى فعل الخير. فى اللحظة الأخيرة قبل أن يتمكنا منى انفلت خارجا من الطابور جارياً بأقصى سرعة إلى غرفة الناظر.

صرخت باكياً: مش حانضرب عشان شراب.

هدأنى الناظر ومالبث المدرس أن جاء يجرى هو الآخر لاهثا وقد فقد أعصابه، كان فى حالة تعسة تذكرك بحالة الصائد الذى أفلتت منه فريسته فى اللحظة الأخيرة. شرحت للناظر مبرراتى وقلت له أننى فضلت عدم ارتداء الجوارب لأنه لا أهمية عملية لها أو ضرورة. طلب الناظر من المدرس أن ينصرف إلى جدوله وطلب منى أن أمر عليه بعد انتهاء الحصص.

مررت عليه بعد نهاية اليوم الدراسى. ابتسم لى وهو يمد لى يده بلفافه صغيرة: أنا معك فى أن الجوارب ليست فى أهمية الحذاء.. ولكنها تمتص العرق فتحمى الحذاء وتحمى القدم أيضا .. وبذلك يعيش الحذاء عمراً أطول.

كانت اللفافة تحتوى على نصف دستة من الجوارب.

ضربت كثيرا فى مرحلة الدراسة الابتدائية وكنت أتحمل الضرب بوصفه جزءا من المنهج أو أمراً لازما من لوازم الحياة. ولكن أبشع أنواع الضرب هو عندما نعاقب على جرم لم نقترفه. كانت الحصة الأولى التى يدخل إلينا فيها الاستاذ حبيب مدرس الحساب. بعد دقائق من وجوده صاح: تعال.. أطلع بره..

: أنا..؟!.. ليه.. ماعملتش حاجة يأفندم!

: اطلع.. ما تتكلمش.. إخرس.. إفتح إيدك.. إفتح إيدك..

فتحت يدى، بالتأكيد ارتكبت خطأ بلا وعى منى، فليس من المعقول أن يضربنى على سبيل الهواية ولكن ما هو هذا الخطأ ياترى..؟

لا مفر من أن أشرح للجيل الجديد تكنيك الضرب فى تلك الأيام. بعد تردد قليل فى انتظار معجزة لاتحدث بالطبع، أنت تمد يدك وكفك اليمنى مفتوحة عند ذلك يهوى عليها المدرس بمسطرة قوية، فتشعر وكأن النار قد اشتعلت فيها.. فى رد فعل غريزى تضعها بسرعة تحت إبطك وتضغط عليها بساعدك لتخفيف الألم وفى نفس الوقت تعطيه كفك الأخرى.. طاخ.. اليسرى طيخ.. اليمنى.. طاخ.. اليسرى.. طيخ.. ويتسارع إيقاع الضربات ويتحول الضارب والمضروب إلى راقصين يؤديان ما يمكن تسميته برقصة المسطرة، فعند لحظة معينة يرفع المضروب قدمه اليسرى

بشكل لا إرادى بينما هو يمد كفه اليمنى ثم ينحنى بجسمه إلى الأمام ثم يعتدل استعداداً لتلقى الضربة التالية. الكارثة فى هذه الرقصة الإجبارية أنك لاتعرف عدد الضربات المحكوم بها عليك.. لاعدد محدد وإنما الضرب بالبركة إلى أن يشعر هو بالشبع. وبين الضربة والأخرى كان يصيح ناطقاً بحيثيات الحكم وسبب عقابه لى: إحنا.. طاخ.. مش فى مدرسة.. طيخ.. بنات.. البنات بس.. طاخ.. هى اللى تضحك.. طيخ.

أرد بنفس إيقاعاته وأنا أواصل تلقى الضربات: والله.. طاخ.. ماحصل.. طيخ.. والله ما ضحكت.. طاخ.

- إخـــرس.. طاخ.. هو أنا.. طيخ.. مش شـــايفك طاخ.. بتكدبنى ياولد.. طيخ؟

أمر فظيع بالطبع أن يكذّب الولد المدرس، ولكن الحقيقة هى أننى لم أضحك. المدهش بعد ذلك أن الاستاذ حبيب كان يعاملنى بود واحترام، بل أننى عندما طلبت منه أن أنضم لمجموعة التقوية فى الحساب، وأوضحت له أننى عاجز عن دفع الخمسين قرشاً المطلوبة فى الشهر، رحب بى على الفور واهتم بأن يشرح لى كل ما كنت عاجزاً عن فهمه. وفى عام ١٩٥٩ بعد مرور حوالى خمسة عشر عاماً على تلك الواقعة قابلته فى القاهرة، كنت أعمل فى قسم الماهيات بوزارة الصحة قلت له: أستاذ حبيب، هناك

شئ أريد أن أؤكده لك منذ زمن بعيد.. أنا لم أكن أضحك فى ذلك اليوم الذى ضربتنى فيه فى ثانية ابتدائى..

إنها ابتسامة دائمة عالقة بوجهى كما ترى..

ضربنى أيضا الاستاذ عبد المطلب مدرس اللغة العربية، ولكنى كنت أستحق العقاب لذا لم أغضب منه فقد كان على حق. كانت هناك قصيدة شعرية حوارية طويلة جداً فيها حيوانات كثيرة كل منها يقول عدة أبيات. كان المطلوب من كل تلميذ أن يحفظها كلها، ولكن من الناحية العملية كان أول طالب يلقى دور الأسد ثم يكمل الطالب المجاور فيلقى دور الذئب والثالث الفيل والرابع الثعلب وهكذا، حسبت عدد الأولاد الذين يسبقوننى فى ترتيب الإلقاء واكتشفت أن الدور سوف يأتى على لألقى بحوار الذئب. إذن لا داعى لحفظ القصيدة كلها. يكفى أن ألقى بالأبيات الخاصة بالذئب فى ثقة واتقان معطيا انطباعا قوياً بأننى متمكن من القصيدة كلها ذات يوم غاب التلميذ الذى يجلس على يمينى فوجدت نفسى مطالبا بأن أقول دوره وهو الثعلب. وقفت عاجزاً فى خجل وأدرك الاستاذ عبد المطلب طبيعة المقلب الذى أوقعت نفسى فيه. وبدأت رقصة المسطرة.

الملوخية .. وصراع الأزياء

كنت قد بلغت الثانية والعشرين من عمري في ذلك الوقت من شتاء ١٩٥٨ عندما عدت إلى بني سويف بعد انتهاء خدمتي العسكرية في مركز تدريب الإشارة قبل موعدها الرسمي بعدة شهور نظراً لوفاة والدي الموظف الحكومي وبعد أن أصبحت العائل الوحيد للأسرة..

استغل أحد زملاء والدي نفوذه الحكومي وكلم أحد أصحاب المطاحن لكي أعمل لديه، وفي المطحن الذي كان يبعد حوالي أربعة كيلو مترات عن البلدة لابد من قطعها سيرا على الأقدام، قابلني ابن صاحب المطحن وكان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، نظر لي ببرود وقال بلهجة تخلو من أي ود: لا أعتقد أن العمل الموجود لدينا يصلح لك..

أجبته: أي عمل يصلح لي،

قال: ولكن الأجر قد لا يروقك..

سألته: كم؟

قال: خمسة جنيهات شهرياً..

أجبته على الفور: موافق..

كان المعاش الذى نحصل عليه فى ذلك الوقت هو سبعة جنيهات واثنى عشر قرشا.. ويبدو أن الشاب استاء من موافقتى فواصل حملته..

– كما لا توجد أجازات أسبوعية..

– لا بأس..

– ولا توجد أجازات من أى نوع..

– موافق..

– ولا توجد ساعات راحة أثناء النهار، ستظل ملازما بوابة المطحن طول النهار.. منذ السابعة صباحاً حتى تنصرف آخر شاحنة؟

سألته بأدب: ومتى تنصرف عادة آخر شاحنة؟

أجاب بعصبية: لا أعرف، تنصرف عندما تنصرف.. ليس هناك موعد محدد لذلك.. ترددت هذه المرة فى الموافقة، ولكن يبدو أن حواره معى لم يعجب أحد الموظفين في المكتب فتدخل قائلاً بلطف: بالطبع ليس هناك موعد محدد لانصراف آخر شاحنة ولكن بشكل عام، العمل ينتهى عادة عند الغروب، عند الغروب بالضبط سيأتى الخفير ليتسلم منك البوابة.

وتسلمت العمل، كانت مهمتى هى التأكد. أن الشاحنات

الخـارجـة من المطحن تحـمل نفس العـدد من جـوالات الدقـيق المسـجل فى إذن الصـرف الموقـع عليـه مـن أمين المخـزن. وكـان يسـاعدنـى على البـوابة شـخص آخـر غـريب الأطوار فـى حـوالى السبعين من عمـره أسـمه عم إسرائيل (إسـمـه هكذا) قيل لى أنه كـان تاجـراً كـبـيـراً، خـسـر كل ثروته فـى بورصـة القطن فـى الاسكندرية منذ خمسة عشر عاماً. فـأصيب بحالة ذهول جعلته يعود إلى بنى سويف سائراً على قدميه، ومن يومـهـا وهـو يبـحث فى الأرض بين الزلط وحبات الحصى عن جعران اثرى حقيقى، يؤمن أنـه سيـجـده يومـاً.. مـا، عند ذلك يصـبح ثرياً مـرة أخـرى. ولذلك عندما كـان صاحب المطحن يرسله فى مهمة داخل المطحن، كان يغيب عدة ساعات، تضيـع بالطبع فى البـحث عن الجعران المنقذ...

اقـتـرب منى عم إسـرائيل وقـال لى: على أفندى.. الجـمـاعـة عاوزينك تلبس جلابية...

– لماذا..؟

– ارتداؤك للبنطلون والقـميص يجعلك تخشى صـعـود عربات النقل لتفتيشها خوفا على ملابسك من أن تتسخ... الجلباب يسهل مـهمتك.

أجـبـتـه بحـسم: لن أرتدى جلبـاباً ياعم إسـرائيل.. ولست فى

حاجة لتسلق الشاحنة، أى سائق لن يجرؤ على السرقة إلا بعد الاتفاق مع أمين المخزن ومعى.. وبما أننى لست لصاً وليس فى نيتى أن أتحول للص، لذلك لن يجرؤ أحد على السرقة، إننى طويل كما ترى، وعندما أقف على هذا الكرسى فإننى أستطيع بنظرة واحدة أن أعرف عدد أجولة الدقيق المحملة على العربة من طريقة رصّها.. وبدون أن ألمسها...

قاومت بثبات كل الضغوط التى تعرضت لها للتخلى عن القميص والبنطلون وارتداء الجلباب، فقد كنت أومن أن شكلى الخارجى هو الشئ الوحيد الذى يربطنى بعالمى الخاص، عالم أصحاب الأحلام الذين يكافحون للوصول إلى مكان رفيع، ولكن يبدو أن ذلك كان يشعر أصحاب المطحن بالفزع، فهو يخل بالتوازنات الطبيعية والطبقية داخل المطحن، فهم وحدهم الذين كانوا يرتدون الملابس الأفرنجية، بينما يرتدى كل العاملين فى المطحن الجلباب، بما فيهم الباشكاتب الذى كان يرتدى جلبابا من الجوخ الفاخر ولكنه يظل فى التحليل النهائى بالرغم من جودة خامته وفخامته جلبابا. لذلك قررت أن أخوض معركتى حتى النهاية، وليحدث ما يحدث. أذكر أنه فى اليوم الأول لعملى على البوابة، مرت الساعات بطيئة وبدأت أشعر بالجوع، التفت إلى عم إسرائيل وقلت له: عم اسرائيل، أنا جائع، أين استطيع الحصول على أى شئ يؤكل.؟

قال: سوف ياتينا طعام الغذاء بعد قليل، هذا هو المتبع لمن يعملون على البوابة، لكيلا يتركوها ولو للحظة واحدة...

وبالفعل جاءنا طعام الغذاء من بيت صاحب المطحن المجاور للبوابة (ملوخية، أرز، قطعة لحم، رغيفان) وفى اليوم التالى اختفى اللحم، وفى اليوم الثالث أختفى الأرز وتم تثبيت الوضع على الملوخية والخبز، سألته مازحا: هل سنواصل أكل الملوخية إلى أن ينتهى موسمها؟

أجابنى بعد تنهيدة حارة: بعد أن ينتهى موسم الملوخية الخضراء، سيستخدمون الملوخية الناشفة.

صحت بفزع: ماذا تقصد؟ هل سنأكل الملوخية للأبد..؟.. هل هي عقوبة؟

رد بحزن: إننى أتناول الملوخية على هذه البوابة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً..

لم أستطع النطق، وبدأ يستولي على رعب طاغ، هذا الرجل شرب بحيرة بأكملها من الملوخية ترى، هل ساهمت الملوخية فى صنع الحالة العقلية التى آل إليها؟ وماذا سيحدث لى إذا بقيت فى هذا المكان؟

وتركت المطحن، ولكن تلك قصة أخرى.

الفرحة المدمرة

المكان: فندق روزفلت، شارع ماديسون، نيويورك.

اقتحمت غرفتي فى لطف عبر النافذة موسيقى قرب جميلة، كانت قوية إلى الدرجة التى شعرت معها أن كل الناس فى الشارع يحملون القرب ويعزفون عليها، هذا هو ما وجدته بالفعل عندما نزلت إلى الشارع.

مئات البشر من كل الأعمار، أطفال وشباب وكهول وشيوخ، يرتدون الملابس الأيرلندية المزركشة البراقة يعزفون ويغنون ويرقصون.

سألت: ما المناسبة؟

فقيل لى: أنه يوم القديس سانت باتريك، عيد إيرلندى وطنى وأن اليوم أجازة فى أمريكا كلها.

كانت الوجوه تشع بالفرحة والأجسام تتقافز راقصة فى نشاط وصحة والملامح مليئة بالكبرياء وتذكرت بعض أعيادنا الوطنية، عيد الوحدة الذى نحتفل فيه بمرارة الانفصال وعيد

النصر الذى نتجرع فيه علقم الهزيمة.

على ناصية شارع ماديسون مع شارع ٤٥ كانت تقف عربة ساندوتشات من تلك العربات الصغيرة المصنوعة من الألومنيوم والزجاج والتى تنتشر على نواصى الشوارع فى نيويورك تبيع ساندوتشات الهمبورجر والكلاب الساخنة أقصد الـ Hotdog.

اقتربت من الشاب الأسمر صاحب العربة، أدركت على الفور أنه مصرى ليس لأنه كتب على عربته كلمة فلافل "Falafel" التى تعني فى قاموسنا طعمية ولكن لأننى استقبلت بأجهزتى الرادارية موجات الموسيقى غير المسموعة المنبعثة من جسمه ومن روحه، موسيقى الغربة وأنغام عذاب البعد عن الوطن الذى لم تفلح فى تخفيفه الدولارات، ألقيت عليه التحية المصرية العصرية.

- صباح الخير ياعسل.

- أهلا وسهلا ياصباح الفل والياسمين نهارك أبيض.

هو اسكندرانى خريج كلية العلوم.

هل كان هذا المسكين يعلم وهو يقضى الساعات الطوال فى معمل الكلية يخلط الكيماويات ويراقب تفاعلاتها ثم يسجل القراءات والكميات والأرقام، أقول هل كان يعلم أن الأمر سوف ينتهى به إلى خلط الهامبورجر بالكاتش أب والمسطردة فى شوارع بلاد العم سام!

اقتربت فتاة لها ملامح يابانية طلبت ساندوتش هامبورجر وعلبه بيبسى كم الحساب؟

خمسة دولارات وستون سنتا.

- لماذا ؟

قالتها الفتاة صائحة فى دهشة واستنكار.

رد عليها صاخبا: عاوزه تدفعى كام؟

قالت باستياء لست أريد أن أدفع شيئا ولا أريد منك شيئا.

وتركت له الساندوتش وعلبه البيبسى وانصرفت. جاءت سيدة أخرى وطلبت كعكة كبيرة وعندما قال لها على ثمنها تركت الكعكة وانصرفت.

سألته بحذر خشية أن يعتبر تدخلى فى عمله قله أدب منى: هل هذه الأسعار عادية؟

- لا.. بس النهاردة أحنا بنبيع غالى شويه.

- ليه؟

- كل سنة وأنت طيب.. عيد بقى.. سانت باتريك.. مولد يعنى.

- وهل من تعليمات القديس سانت باتريك أن ترتفع الأسعار فى هذا اليوم؟

- أصل البلد مليانه أغراب النهاردة.. ودى فرصتنا؟ سيذهبون إلي باقي العربات فيجدون أن الأسعار فيها مرتفعة، عند ذلك سيستسلمون ويدفعون السعر المطلوب طبعا ستتوقف حركة البيع لمدة ساعة بعد ذلك تستقر السوق ونبيع بهذه الأسعار.

- هل معنى ذلك أن هناك اتفاقا بين أصحاب العربات على رفع الأسعار؟

- يعني.. هو مولد كما قلت لك.

هذا المسكين يحمل معه قيم الشرق العربى المعاصر يحاول أن يجد لها مشتريا على أرصفة نيويورك، هو يتصور أنه من الممكن أرغام الزبون الأمريكى على الشراء بالسعر الذى يحدده له تماما كما يحدث فى أسواقنا.. ناسياً أن هذا الزبون أمريكى يعيش فى أمريكا، وأنه لن يستسلم مطلقا لما يرى أنه غير طبيعى وغير منطقى.

المهم أن صاحبنا عاد للبيع بالأسعار العادية بعد أن خسر خمسة زبائن فى خمس دقائق.

صاحبنا هذا ليس أحمق أو مستغلا أو شريرا أو غبيا.. هو فقط شخص متألم.

هو يتألم بشدة ولا يعى مصدر ألمه ويعيش حالة من التعاسة

الداخلية جعلته يفزع من الفرحة التى تحيط به من كل جانب، الوجوه الفرحة والأجسام الراقصة والحناجر المغنية والموسيقى تضاعف من عذابه وبدلا من أن يحاول مشاركتها الفرحة ولعجزه عن ذلك هو يريد أن يسبب لها أى نوع من الألم أو العكننة ليحمى تعاسته من تلك الفرحة المدمرة فرفع الأسعار ولم يستسلم له أحد، عند ذلك استسلم هو وعاد للأسعار العادية، فى الغالب كان يقول لنفسه لقد هزمت هذه المرة ولكن يكفينى شرف المحاولة.

بعد لحظات جاءت عربة أخرى وقف بها صاحبها على الرصيف المقابل وصاح صاحبنا فى سخط بالعامية المصرية.

– الله.. مش طريقة دى يا منير.

واشتعلت الخناقة.

وجاء البوليس ليطلب منهما فى أدب مغادرة المكان، وغادرا المكان.

وبقيت أنا، فرحا مع الفرحين.

الحمار العاشق

ليو الافريقى رحالة إيطالى من أصل عربى واسمه الحقيقى هو "محمد أبو الحسن الوزان". زار مصر عام ١٥٢٦ بعد الاحتلال العثمانى بتسعة أعوام تقريبا، وكتب عنها كما كتب عن بلدان أفريقيا المعروفة فى ذلك الوقت فى كتابة الشهير "وصف أفريقيا" الذى يقال أنه كتبه بالعربية وبالإيطالية، ثم تمت ترجمته إلى اللغة الانجليزية فى عام ١٦٠٠، ويقال أن النسخة العربية قد فقدت.

وقد أسعدنى أن أجد نسخة من الطبعة الانجليزية لهذا الكتاب فى مكتبة جامعة ميتشجان، نظرا لأن الجزء الخاص بمصر فى هذا الكتاب، يلقى أضواء على بعض الظواهر الاحتفالية والإبداعية المصرية التى لم تكن معروفة لى من قبل.

يقول ليو الافريقى:

"والصانع الذى يصل إلى ابتكار أو اختراع جديد، كان يسير فى الشارع مرتديا عباءة مذهبة وخلفه فرقة موسيقية، كأنه فى موكب للنصر، عارضا ابتكاره أو اختراعه على أصحاب الورش

والدكاكين، الذين كانوا يتسجيبون لذلك بأعطائه نقودا (نقوط).

ولقد شاهدت بنفسى عاملا يمشى بين الدكاكين وخلفه فرقة موسيقية تعزف موسيقى احتفالية لأنه استطاع أن يربط برغوثا فى سلسلة ووضعه على ورقة بيضاء وأمسك بها بين يديه لكى يتمكن الآخرون من رؤيتها".

فى الغالب شاهد ليو هذه الواقعة فى منطقة خان الخليلى، وهذا الصانع العبقرى أراد أن يدلل على أن السلسلة التى صنعها دقيقة وخفيفة للغاية، لذلك ربط بها برغوثا.

هنا نجد أن الظاهرة الاحتفالية ترتبط ارتباطا وثيقا بالفعل الحياتى، الذى يتضمنه العمل اليومى، لشعب يقدس العمل والمهارة والإبداع ويكافئ عليها فورا. بعيدا عن السلاطين وأولى الأمر، الشعب نفسه هنا هو السلطان، وهو أولو الأمر، هو الذى يعجب ويقدر ويكافئ ويحتفل.

والآن وبعد مرور مئات الأعوام، أتساءل.. لمن ندفع "النقوط" الآن؟

ويقول "ليو" الأفريقى

"ضاحية باب اللوق، هذه الضاحية الكبيرة التى تبتعد عن أسوار القاهرة بمقدار ميل واحد، يقطنها ثلاثة آلاف أسرة يعملون بالتجارة والصناعة، وفى مكان متسع من هذه الضاحية

يوجد قصر كبير وجامعة أقامها المملوك "أزبك" الذى كان يعمل مستشارا للسلطان فى ذلك الوقت والمكان يسمى بالأزبكية على اسم صاحب القصر، فى هذا المكان، تقام الاحتفالات كما نرى ممثلى المسرح "Stage Players" والحواة، ومدربى الجمال والقردة والحمير الذين يعلمونها كيف ترقص رقصاً مبهجاً حقاً وخاصة الحمار، إنه يرقص وينهق ويبرطع فى فرح ومرح إلى أن يأتى صاحبه ويقول له بصوت مرتفع: إن السلطان فى سبيله إلى إنشاء قصر كبير، لذلك سيستخدم كل حمير القاهرة لحمل الحجارة والمونة وبقية مواد البناء.

وعلى الفور، يخر الحمار على الأرض صريعا، راقدا على ظهره، نافخا بطنه، متخشبا، مغلقا عينيه، رافعا سيقانه إلى أعلى كما لو كان قد مات بالفعل.

عند ذلك يبدأ صاحبه فى البكاء والعويل طالبا من الموجودين (المتفرجين) أن يجمعوا له مبلغا من المال يشترى به حمارا بدلا من حماره الذى مات.

وبعد أن يجمع منهم ما يستطيع جمعه يقول لهم: هذا الحمار خدعكم أيها السادة.. أن عوض (اسم الحمار) الخبيث جائع.. ولقد قام بهذه الخدعة لكى أتمكن من جمع هذه الفلوس لأشترى له بها علفا..

بعدها، يستدير للحمار ويأمره أن ينهض: قم ياعوض.. سأشترى لك العليق.

ولكن الحمار لايتحرك، لقد أصبح جثة هامدة بالفعل، عند ذلك ينهال عليه ضربا فى رقة وخفة.. ولكن بغير فائدة، فيلتفت صاحبه إلى حلقة المتفرجين صائحا: ليكن فى علمكم أن السلطان قد أصدر مرسوما سلطانيا أنه فى الغد سيتم احتفال كبير، وسيذهبُ إلى هذا الاحتفال، الأعيان والحسان الجميلات، راكبين الحمير الظريفة المطيعة ويطعمونها الشعير اللذيذ ويسقونها ماء النيل الصافى بلون الكريستال.

عند ذلك يفيق الحمار على الفور، ويقفز فى فرح ناهقا ومبرطعا.

ولكن صاحبه يواصل حديثه (حواره): ولكن شيخ حارتنا للأسف، اتفق معى على أن تركب زوجته العجوز الشمطاء حمارى الطيب.

يصدم الحمار، ولكنه لايموت مرة أخرى، فقد انكشفت هذه اللعبة، ولكنه يفعل شيئا آخر، يعرج بأحد سيقانه، ويحركها كما لو كانت مخلوعة من مفصلها، وكما لو كان عاجزاً تماما عن استخدامها، ثم يقف فى مكانه فى تعاسة وقد أرخى أذنيه إلى الأرض.

عند ذلك يقول له صاحبه في عطف: ماذا دهاك ياعوض؟.. هل أنت مغرم بالحسان؟ يجيبه الحمار بأن يهز رأسه موافقا.

فيعود صاحبه للقول:.. من المؤكد أنك قد وقعت فى غرام واحدة من الموجودات هنا.. من هى؟.. عند ذلك يسير الحمار مستعرضا كل الموجودين، وأخيرا يقف أمام أكثر السيدات جمالا ويلمسها برأسه، عند ذلك ينفجر الجمع ضاحكا فى صخب وهم يهتفون: حبيبة الحمار أهى.. حبيبة الحمار أهى..

وينتهى هذا الفصل المسرحي الممتع بأن يركبه صاحبه ويجرى به إلى مكان اخر يقدم فيه مسرحيته.

هذا طراز نادر من صناع الضحك الهزلى، ليست لديه قضية اجتماعية يناقشها، ليس مصلحا اجتماعيا، ولكنه مسرحجى بكل معنى الكلمة، مؤلف وممثل ومخرج ومدرب، بضاعته المهارة وخفة الدم، والذكاء وعبقرية المجهود.. لقد اختار حيوانا عرف بغبائه الشديد وحوله إلى أخبث الخبثاء وأخفهم دما.. ولم يكتف بذلك لقد أشرك المتفرجين معه فى الفرجة والتمثيل، لدرجة أنه أسند دور البطلة لأحدى المتفرجات مفجرا بذلك الضحك فى أعلى درجاته.. بعد أن أشاع بينهم جوا من الترقب والتوتر المسرحى اللذيذ، وذلك فى اللحظات التى كان الحمار يمر فيها على المتفرجين ليختار حبيبته.

◆◆◆
عظيم
◆◆◆

إليك قصة أوردها إدوارد لين فى كتابه "المصريون المحدثون، عاداتهم وتقاليدهم" ولقد أوردها لين بوصفها حادثة حقيقية وقعت بالفعل، وكان مصدره فى ذلك واحدا من أصدقائه المصريين.. وأنا أزعم أن أحداث هذه القصة ليست حقيقية ولم تحدث "فعلا" وإنما هى أحداث وقعت فى مسرحية فكاهية. وأزعم أيضاً أن غالبية ما قصه عليه زميله المصرى كان فصولا لمسرحية ضاحكة قدمها المحبظون. "فرق مسرحية بدائية كانت معروفة فى ذلك الوقت".

أننى أريد أن ألفت نظر دارسى المسرح المصرى أساتذة وطلابا لهذه القصة بالتحديد ومقارنتها بمسرحيات "مثلث العشق" التى برع كتاب الفكاهة الفرنسيون فى كتابتها والتى استعان بها مسرحنا لفترات طويلة. لقد كانت أتصور أننا عرفنا هذا النوع من المثلث المسرحى "الزوج، الزوجة، العشيق" الذى تختلف اضلاعه فى كل مرة فتعطى أشكالاً مسرحية لا نهاية لها، كنت اعتقد أنه وافد إلينا من الغرب. ولكن بعد قراءة هذه "القصة -

المسرحية" بدأت أدرك أن المسرحجى المصرى فى منتصف القرن التاسع كان قادراً على تفجير الفكاهة من هذا المثلث بشكل يدعو للدهشة والإعجاب. تعالوا نقرأ هذه القصة.

"تزوج تاجر عبيد عجوز من فتاة شابة تصغره بعدد كبير من السنوات، وعندما أهملها وأساء معاملتها طلبت منه الطلاق مرارا وتكرارا فرفض. اتخذت الزوجة عشيقا يعمل زبالا ولكى تصعد به على السلم الاجتماعى عدة درجات، فتحت له دكانا ملاصقا للبيت يبيع فيه البقول والعطارة، وكان يصعد إليها في غرفة النوم مستخدما شجرة مجاورة للمنزل تلتصق فروعها بغرفة النوم. ذات يوم استدعت الزوجة خادمتها وقالت لها: أريد منك أن تذهبى إلى زوجى وأن تقولى له أننى على صلة برجل آخر، وأننى سألتقى به فى غرفتى الليلة بعد الغروب.

نفذت الخادمة أمر سيدتها وأخبرت الزوج بذلك. من الطبيعى، بل من المحتم أن ينصب الزوج للزوجة كمينا يضبطها فيه متلبسة بالجرم المشهود، لذلك قال لها أنه سيسافر الليلة ويبيت خارج القاهرة، وطلب منها أن تغلق الباب على نفسها ولا تنتظر عودته. ثم اختفى تحت السلم أسفل المنزل ، وعندما هبط الليل صعد إلى غرفتها واخذ يدق الباب بقبضتيه بعنف وهو يصيح: افتحى يافلانة.. افتحى ياكذا وكذا وكذا .. أنا اعرف من معك الآن وأعرف ما تفعلان ياكذا يابنة الكذا..

وهنا صرخت الزوجة صرخة مدوية أفزعت كل سكان الحارة: يادهوتي.. الحقوني.. حرامي.. جاء سكان الحارة على الصياح مسرعين، تجمعوا حول الرجل الذي يسب زوجته بأقذر الألفاظ.. كان على وشك أن يفقد عقله.

حاول الجيران تهدئته ومعرفة ما يحدث فأجابهم: هذه الداعرة العاهرة لديها رجل الآن في الغرفة..

كان يحكي لهم بينما هي مستمرة في الصراخ من داخل الغرفة: الحقوني.. حرامي ..

فصاح بعض الجيران: افتحي يافلانة، إنه ليس لصا .. هو زوجك.. نحن نعرفه.

أجابت صارخه: مستحيل، زوجي سافر خارج القاهرة.. وطلب مني ألا أفتح الباب لأحد.. هذا حرامي.

ياستي هو جوزك والله العظيم.. افتحي ..

فتحت الزوجة الباب فاندفع الزوج والجيران داخلين، كان العشيق بالطبع قد غادر الغرفة من النافذة نازلا على الشجرة، فتش الزوج الغرفة جيدا فلم يجد أحدا، وهنا يواجه الزوج موقفا فظيعاً، لقد سب زوجته ونعتها بأوصاف حقيرة أمام أكبر عدد من الشهود، أمام سكان الحارة كلها فأصبح من حقها شرعاً أن تطلب منه الطلاق فوراً. وهذا ما حدث، طلبت من الجيران أن

يقتاده إلى القاضي، طلب القاضي منه أن يطلقها فرفض فأصدر حكما بجلده ثمانين جلدة. وبعد تنفيذ الحكم عاد مع زوجته إلي البيت.

وفى ليلة أخرى، بينما كان الزوج نائماً، ربطته الزوجة فى المرتبة وتسلل العشيق إلى الغرفة، عبر النافذة، أيقظ الزوج وقال له هامسا وهو يلوح بخنجره أمام عينيه: اسمع، حسك عينك اسمع صوتك، لو فتحت بقك، حاموتك على طول.

قال ذلك ثم ربط منديلاً على فمه.

وأمام الرجل المرعوب، قضت الزوجة والعشيق أوقاتاً هنية، ثم اختفى العشيق خارجا من النافذة دون أن يلحظ الزوج ذلك، فكت الزوجة قيود الزوج فانهال عليها ضربا وهو يصرخ، جاء الجيران فحكى لهم فى جنون ما حدث. وردت الزوجة "المظلومة" فى هدوء: ما انتم عارفين طبعا أنه مجنون.. مش حصل قدامكم قبل كده.. من المستحيل أن أحيا معه بعد ذلك.. لابد من الطلاق.

مرة أخرى اقتادوا الرجل إلى القاضى الذى خيّره: أما أن تطلقها إيها الرجل المجنون أو أصدر حكما بإيداعك المورستان.

أصر الزوج على عناده ورفض أن يطلقها فأصدر القاضى حكما بوضعه فى مستشفى المجانين ولكن الزوجة صاحبة القلب الكبير قالت: أرجوك ياحضرة القاضى، هو صحيح مجنون

ومــجــرم ولكنه في النهــاية زوجى، هـو زوجى إلى أن يطلقنى، ولكننى لن اتخلى عنه مـادمت على ذمتـه، من سيعتنى به هناك فى المورستان؟.. مين حاياكله؟ مين حايحميه؟ مين حياخد باله منه؟.. أنا أطلب منك ياحضـرة القاضى أن تربطوه بالسلاسل في البيت تحت السلم لكى يكون قريبا وأتمكن من العناية به.

وهذا مــا حــدث، ربطوا الرجل بالســلاسل تحت السلـم، مع إضافة ياقة حديدية متصلة بسلسلة تشده إلى الحائط.

وعندما يأتى المساء كانت الزوجة تمر عليه ومـعـها عشيقها وتسـأله بهدوء: أيه رأيك.. مش يستحسن تطلقني؟

ويرفض الرجل فى عناد فيتركانه ويصـعدان إلى غرفـة النوم فيأخذ فى الصراخ والعواء والسباب ولكن أحداً من جيرانه سكان الحارة لا يتحرك من مكانه فهم جميعاً يعرفون أنه مجنون.

وفى النهـاية يرضخ الرجل لرغبـتـها ويطلقـهـا، ولكى تنتـهى القصة نهاية أخلاقية، تعترف الخـادمة بدورها فى المؤامرة وبما فعلته الزوجة فيتم إعدام الزوجة والعشيق.

* * *

هذا "الفعل" ليس من صنع البشر فى حياتهم العـادية، بل هو من صنع فنان مسرحي مبدع، لقد أختار المسرحجى مهنة الزوج بعناية فائقة، اختار له أن يكون نخاسا، وهى مهنة وضيعة شريرة

تحظى باحتقار كل فئات البشر، ثم أضاف لها بعداً شريراً آخر، هو زواجه من فتاة صغيرة، هنا ضمن الفنان المسرحى أن يضحك المتفرج من كل قلبه وهو يرى الزوجة تكيد للزوج كل هذا الكيد المروع. ثم انظر لعبقريته فى بناء "الموقع" لقد لجأ إلى حيلة فنية تخدم قضيته فى بناء الحدث، العشيق له دكان تحت المنزل أو بجواره، ثم انظر المقابلة بين الوضع الاجتماعى المرتفع للزوج ثم اختيار شخص آخر من اسفل السلم الاجتماعى وهو الزبال، غريبان فقط في ذلك الوقت كان مسموحاً لهما بدخول البيوت دون أن يثيرا ريبة أحد: السقاء، والزبال.

ولكن لابد من وجود الزبال قريباً من مسرح الاحداث، وهنا يلجأ لحيلة فنية أخرى تبدو طبيعية جدا وهى أن الزوجة فتحت له دكانا لكى ترفع مكانته الاجتماعية، ولكى يقوى "وحدة المكان" اختار أن تكون هناك شجرة فروعها ملاصقة لغرفة الزوجة، كل عناصر الفعل المسرحى هنا تجمعت بشكل طبيعى فى موقع وفى سبيكة واحدة، وحتى بعد أن ألبسته زوجته تهمة الجنون وصدر الحكم بإيداعه مستشفى الأمراض العقلية، يتم حبسه فى نفس الموقع تحت السلم لكى يستمتع المتفرج بردود فعله بشكل يفجر الضحك حتى من أصحاب القلوب الصخرية، المتفرج هنا يضحك طول الوقت مفرغا طاقة العدوان بداخله على هذا الزوج الشرير صاحب المهنة الوضيعة، ولكنه بعد أن يتطهر من طاقة العدوان

بفضل الفرجة والضحك، سيبدأ ضميره فى العمل، سيسأل نفسه: ولكن هل من العدل أن يفعل إنسان بإنسان آخر ماتفعله هذه الزوجة بزوجها، حتى لو كان تاجرا للعبيد، حتى لو أهملها وأساء معاملتها؟

قبل أن يسأل المتفرج نفسه هذا السؤال الذى سيفسد بالطبع أى أثر للفكاهة، يكون الفنان الشعبى المبدع قد أنهى المسرحية بحل يرضى ضمير المتفرج: لقد أُعدمت الزوجة والعشيق.

وهنا يعود المتفرج سعيدا إلى بيته، لقد ضحك على ما حدث للرجل الشرير، ونال المجرم جزاءه وتعلم درسا جديدا، لا تتزوج فتاة أصغر منك بكثير، وإذا حدث فلا تهملها أو تسئ معاملتها، وإذا طلبت منك الطلاق، طلقها فوراً..

أنا هادئ

وهو يقود سيارته فى طريقه إلى الاستوديو أخذ يهمس لنفسه: الحمد الله، أنا هادئ اليوم، وحالتى المزاجية رائعة، لابد أن أنتهى من تصوير ذلك الفيلم قبل أن يصيبنى المخرج بالجنون، على أن أكون هادئاً وبارد الأعصاب طوال الوقت، كل طاقتى العصبية سأركزها فى التمثيل فقط، لن أصلح السينما بمفردى، علىّ ان أوافقهم على كل ما يطلبونه منى، المهم أن أحبط كل محاولاتهم لاظهارى بمظهر الإنسان الذى يتخانق دائماً لأسباب تافهة، لن أتشاجر، لن أرفع صوتى، لن أصرخ لأسباب تافهة أو جادة، يارب، ساعدنى على أن أمرر هذا اليوم بخير.

دخل الاستوديو وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، بدأت جملة "نهاركم أبيض" تتناثر من فمه فى كل الاتجاهات وكأنها تعويذة سحرية يبعد بها شبح التوتر. دخل إلى غرفته فجاءه على الفور مساعد المخرج يحمل فى يده السيناريو وكشفا باللقطات والمشاهد المطلوب تصويرها اليوم. رحب بالمساعد

وأشاد بكفاءته بل قال له مجاملا أنه سيغضب منه إذا قام بإخراج فيلمه الأول دون أن يقوم هو ببطولته، حمد المساعد الله فى سره لأن البطل فى حالة مزاجية طيبة فى ذلك الصباح.

- أيوة يا أشرف يا حبيبي.. ماذا سنصور اليوم؟

● بإذن الله سننتهى من تصوير المشاهد الخاصة بديكور غرفة البواب.

- جميل.. كل المشاهد؟

● نعم كل المشاهد، كلها ورا بعض بدأ النجم يستشعر قلقا آتيا من مصدر غامض ولكنه حافظ على جو الألفة والحب بينه وبين المساعد، قال له بعنوية: ياعزيزى أشرف، لابد أن نعطى للديكوريست ومسئول الاكسسوار الفرصة لعمل التغييرات التى يتطلبها المشهد.

- تغييرات ايه يا أستاذ أحمد؟ احنا عاوزين نخلص.

● أيوه ياحبيبى.. أنا كمان عاوز أخلص قبل منكم.. بس الأصول لازم تتعمل قال المساعد بدهشة: أصول إيه.. الديكور جاهز، والاكسسوار جاهز.. وكل حاجة جاهزة.

مرة أخرى بدأ يشعر بمصدر للنيران يشتعل بداخله: ياصديقى اسمعنى جيدا، وسأسمعك جيدا عندها سيفهم كل منا

الاخر جيدا ولا نختلف، فى المشاهد الأولى البواب قادم لتوه من قريته، أعطاه صاحب البيت هذه الغرفة فوق السطوح، هي غرفة فقيرة للغاية، الحيطان فيها لونها كالح، والفرش الموضوع على السرير أى كلام، والاكسسوارات فقيرة للغاية أليست هذه هى حالة الغرفة فى المشاهد الأولى؟

أجاب المساعد على مضض: نعم.

واصل النجم حديثه وكأنه يشرح درسا لطفل: جميل.. بعد ذلك البواب بدأ يعرف الفلوس.. أليس من الطبيعى أنه سيهتم بغرفته من المحتم أن تظهر أثار النعمة الجديدة على ملابسه وملابس زوجته، وحتى على ملامحه الشخصية، هنا ستتغير ألوان جدران الغرفة لأنه أعاد طلاءها، فرش السرير سيتغير، من الطبيعى ان يظهر بوتاجاز صغير فى الغرفة، لوحة على الحائط.. ولتكن لوحة فواكه، كانت هناك حصيرة مهترئة على الأرض، الآن يوجد "كليم" متواضع، ثم نأتى للمرحلة الأخيرة ، البواب يعمل سمسارا، يعنى بدأ يعرف آلاف الجنيهات، بل عشرات الآلاف الجنيهات ، لابد أن تظهر آثار ذلك على الغرفة أيضاً تليفزيون ملون كبير جهاز فيديو. خلاط، إلى آخره.

قال المساعد بنفاد صبر: سنضيع فى ذلك وقتاً كبيرا.. احنا عاوزين نخلص.

- بالعكس لن نضيع دقيقة واحدة، هذه الأمور كلها لن تأخذ من الديكوريست أكثر من ساعتين، فى هاتين الساعتين سنقوم بتصوير اللقطات المتبقية من الأمس فى المطبخ، عندما ننتهى منها يكون الديكوريست قد انتهى من اضفاء الملامح المطلوبة على ديكور غرفة البواب فنصور المشاهد الخاصة بالمرحلة الثانية، وهكذا...

لن نتوقف عن التصوير لحظة واحدة، المهم هو أن يلاحظ المتفرج بوضوح المتغيرات فى غرفة البواب، ياعزيزى أشرف، أنا لا أمثل فى فراغ، أنا أمثل داخل ديكور، وإبداعى لا ينفصل عنه، كلانا يحاول إقناع المتفرج بشئ وعلينا أن نتقن هذا الشئ، وظيفتى كممثل هى أن أُقنع المتفرج بأننى كنت فقيرا جداً وبأننى بدأت اقطع خطوات فى طريق الثروة، ووظيفة الديكور هى إعطاء هذا الجو والتأكيد عليه.

سكت المساعد لحظة وهو ينظر فى بلاهة ثم قال: بس احنا عاوزين نخلص.

فى لحظة واحدة تساقطت كل الحصون والقلاع والخطوط العصبية الدفاعية بداخله وصاح الممثل فى تعاسة فى صرخة سمعها كل سكان حى الهرم: حرام.. حرام.. حرام عليكم.. حاتموتونى.

ترك البلاتوه وعاد إلى الأوتيل، وبدأت وفود المصالحات فى القدوم، وقال الديكوريست: ياجماعة.. الحاجات دى كلها تاخد منى ساعتين.. لماذا لم يطلبها منى أحد؟

وعاد النجم بعد عدة أيام، كان يهمس لنفسه وهو يقود سيارته: لازم استحملهم.. لن أسمح لأحد بأن يفقدنى أعصابى.. الناس لا تعرف ما يفعلونه بى ولا تسمع ما يقولونه لى.. هم فقط يسمعوننى وأنا أصرخ.. الناس ترانى فقط عندما أتشاجر، لا يجب أن أعطيهم الفرصة للنيل من سمعتى.. سأسكت، سأرضخ لكل ما يطلبونه منى..الحمد الله.. أنا هادئ اليوم.. وفى حالة مزاجية طيبة.. الخ.

الصول والنشال

الحياة هى أعظم مؤلف دراما فوق الأرض ووظيفة المؤلف الحقيقية هى إجادة الإستماع إلى ما تقوله ثم صياغته فى الشكل الذى يراه ثم إعادة تصديره مرة أخرى إلى الحياة.. أقصد إلى المتفرجين. هنا تصبح الدورة طبيعية بعيداً عن الزيف. فالمتفرج يرى نفسه على الشاشة ويتعرف على مخاوفه ومتاعبه ثم تزداد متعته عندما يتوحد بالبطل، يصبح المتفرج هو نفسه البطل، وإذا كان المتفرج عاجزا فقيرا محبطا ضعيفا فسيتحول من خلال بطله، إلى عملاق قوى، غنى، قادر على هزيمة الشر، من هنا تأتى أهمية عنصر النبل فى الدراما السينمائية. لابد أن يكون البطل نبيلا عنيداً فى كل الأحوال، حتى إذا سرق فهو لايفعل ذلك لأنه يعشق السرقة ولكن لأنه أرغم عليها.

وعندما يقاتل الآخرين فهو يقاتلهم ليس لأنه فتوة أو مجرم ولكن دفاعاً عن قيمة نبيلة، وهو قد يُقتل ولكن لا يموت.

والحياة أيضا قادرة على التعبير عن نفسها في إطار من

الضحك المر يعجز عن صنعه حتى ڤولتير أو موليير، فقط استمع اليها وشاهد ما تقدمه لك.

فى صفحة الحوادث قرأت خبرا عن مساعد شرطة عجوز يتولى ترحيل نشال شاب إلى النيابة، وفى الطريق قامت بينهما علاقة مودة أراد المساعد أن يستفيد منها إلى أقصى حد، اغراه على ذلك مظهر النشال وسلوكه اللذان ينمان عن الثراء، فطلب منه مائه جنيه على سبيل القرض الحسن ووعده بأن يرده له فى أقرب فرصة. البطل هنا من وجهة النظر الدرامية ليس النشال وإنما المساعد العجوز، وسقطته هى نموذج واضح وفذ لسقطة البطل المعاصر التى تفجر أكبر قدر من الضحك. فمن المحتم أن يستثمر النشال الخبيث تلك اللحظة لمواصلة القيام بدوره كنشال. اعتذر فى البداية لأنه لا يملك المبلغ المطلوب ولكنه ألمح أنه من السهل "الحصول" عليه إذا سمح له بممارسة عمله لدقائق، فسمح له المساعد.

أنظر إلى عبقرية المشهد الذى ألفته الحياة، كان المساعد يقود النشال إلى النيابة، وها هو النشال يقود المساعد إلى الجريمة.

أخذا يبحثان عن الأماكن المزدحمة ولكنها كلها للأسف تجمعات فقيرة، يغوص فيها النشال ثم يظهر بمحفظة ليس بها إلا عدة جنيهات.. غزوة أخرى وثالثة ومازالت الحصيلة عدة

جنيهات بينما المساعد – الذى تحول الآن لمساعد نشال – يمنى النفس بعدة آلاف أو حتى عدة مئات يحصل على نصفها. تستطيع أن تتخيل المساعد وهو يعنف النشال على خيبته وفشله بينما الوقت يمضى بسرعة ولابد من ذهابه إلى النيابة فى الوقت المحدد.. ويزداد توتر النشال ويفقد حرصه فيندفع برعونة لينشل شخصا رآه يخرج أوراقا مالية كثيرة من جيبه فيقبض عليه ومعه زميله بالطبع . وأمام النيابة يعترف فيقبض على الصول والنشال مع وقف التنفيذ، أو من الممكن اعتباره نشالا مانشلش حاجة.

الحياة هنا تقدم لنا الفكرة فقط، عند ذلك يلتقطها الفنان المبدع ويمشى بها فى طريق الفن. يطرح على نفسه مئات الأسئلة والإجابة على كل سؤال فيها يتحول إلى مشهد واقعى جميل على الشاشة، هذا الضعف الإنسانى الذى دفع الصول إلى هذه السقطة هو النبع الجميل والمؤلم للفكاهة الأصيلة.

لنفرض أن النشال نجح فى سرقة مبلغ كبير. هل كان الصول سيذهب به فعلا إلى النيابة أم يؤجل ذلك لعدة ساعات أو لعدة أيام، ماذا سيحدث فى خلال تلك الساعات والأيام؟ من هو هذا الصول؟ وماهى ظروفه .. ؟من هو ذلك النشال؟

قد تسألنى: أين هو البطل النبيل العنيد؟

وأرد عليك: الواقعة هنا تقدم النبل بمفهوم المخالفة، تقدم

لحظة الضعف الإنساني التى يتخلى فيها الإنسان عن نبله وترفعه، ثم تنطلق منها إلى طريق الجريمة التى لاتفيد، وهى بذلك تحصن المتفرج ضد الجريمة بواسطة طاقة الضحك والسخرية، هنا لايتوحد المتفرج بالبطل بل يقول: أنا لست أنت.. أنا أقوى منك بكثير.. لم أسقط سقطتك ولكنى سعيد بها لأنها تضحكنى.

هل تعتقد أنه من الممكن ظهور فيلم يعالج هذه الفكرة؟

لا.. وإذا ظهر سيكون سخيفاً جداً، لأن الممثل الذى سيلعب دور النشال سيمزق دور الصول أو بالعكس. مسموح فى السينما بدور واحد متميز للبطل وحده، وبقية الأدوار تلعبها أشباح باهتة.

وبذلك يسقط الفيلم والبطل والمتفرج ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفن المفقود

اثنتان وثلاثون سنة أو تزيد مرت على مشاهدتي لتلك اللقطة ومازالت محفورة في ذاكرتي. كان الفيلم عن قارة أتلانتا المفقودة التي يقول بعض العلماء أنها كانت موجودة بين أفريقيا وأمريكا ثم غرقت لأسباب لا نعرفها في أعماق المحيط.

يقول الفيلم أن القارة كان يحكمها بعض العلماء الأشرار الذين كشفوا الكثير من أسرار العلم ووظفوه ليس لخير الإنسان وإنما للسيطرة على البشر واستعبادهم.. من بين ما توصلوا إليه، القدرة على تحويل البشر إلى ثيران باستخدام قطعة بللور تصدر إشعاعاً معينا على الجسم البشرى فتحوله إلى نصف ثور ونصف إنسان. وكان الهدف من ذلك هو الحصول على كائنات جاهلة قوية، قادرة على حمل الأحجار الضخمة لعمل السدود وبناء المنشآت هائلة الحجم.

وكان من الطبيعي أن تحدث حركة مقاومة لهذا الفعل الشرير، وأن يكون لهذه الحركة قائد شاب قرر أن يخوض معركته للحفاظ على الإنسان إنساناً كما خلقه الله وليس كما يريده هؤلاء العلماء

الأشرار.

هذا هو بطل الفيلم إذن، وهو ككل الأبطال يصارع الشر ويتعرض لأخطار كثيرة، ولكن لأنه البطل.. فأنت تستبعد تماماً أن ينهزم فى نهاية الفيلم، بالطبع سيخرج منتصراً بعد أن يقضى على كل الأشرار. ولكنهم استطاعوا القبض عليه وحبسوه مقيداً فى حظيرة الثيران لتحويله هو الآخر إلى ثور، لا بأس، ذلك أمر لن يحدث لأنه البطل، سيتمكن، من الإفلات بطريقة ما.

العالم الشرير يقترب منه بقطعة البللور يسلط أشعتها نحوه، ياله من مشهد محزن وفظيع، ولكن لا بأس، أنه البطل والبطل ينجو دائماً.

وهنا حدث الشئ المفزع الذى لا يفارق ذاكرتى.

بدأت ملامح البطل تتغير، بدأ يظهر على جبينه نتوءان، سيتحولان إلى قرنين، ملامح وجهه تكتسب ملامح ثيرانية، بدأت التحورات تحدث فى الجزء الأعلى من جسمه، ياإلهى، البطل يتحول فعلاً إلى ثور.

واقتربت الكاميرا من عينيه وقد امتلأتا بقدر من التعاسة لا يوصف.

فى تلك اللحظة شاهدت نفسى، خيل إلى أن البطل يحمل ملامحى، هاتان العينان هما عيناى، لقد وصلت فى الاندماج إلى

أعلى درجات التوحد بالبطل، إنه أنا، أنا الذى يتحول إلى ثور.

فى تلك اللحظة بدأت أفكر فى وضعى كموظف حسابات فى وزارة الصحة، هذه الوظيفة تفقدنى إنسانيتى وتحولنى إلى ثور تدريجياً وعلى أن أرفض هذا المصير، لابد أن أترك هذه الوظيفة فوراً.

لقد هزم البطل النبيل فى معركته وتحول إلى ثور، ولكنه نجح على الأقل فى أن يدفع بروح المقاومة فى متفرج واحد هو أنا.. بالتأكيد هناك متفرجون كثيرون سيعملون على الإفلات من هذا المصير المحزن. هذا هو ما نقصده من حديثنا عن الفن النبيل والبطل النبيل الذى يُقتل ولكنه لا يموت ويُهزم لكى ننتصر نحن.

إن للفنان وظيفة واحدة هى الحفاظ على هذه الحياة والتحريض على حبها وعلى أن يظل الإنسان إنساناً.

هذه هى وظيفة الإبداع الفنى بلا مواعظ أو خطب أو كلمات غليظة ولكن بالعمل الشاق بحثاً عن الفكرة المبدعة ثم السير قدماً فى التنفيذ على جسر الإتقان فى كل خطوات العمل الفنى. والفنان ليس مطالباً أن يكون عبقرياً، فالعبقرية من نصيب عدد قليل جداً من البشر فى كل مجالات الفن ولكن المطلوب هو الفنان الجاد المتقن لعمله، الرافض للخطأ والإهمال.

إن الإهمال عند سائق الميكروباس قد يترتب عليه هلاك ركاب

العربة، والإهمال عند الطبيب قد يترتب عليه هلاك إنسان، أما الإهمال عند الفنان فهو يتيح للشر أن ينتصر على الخير بداخل ملايين البشر، ونحن عندما نقدم عملاً رديئاً فوق خشبة المسرح أو على شاشة السينما أو التليفزيون فهذا معناه أننا نطعّم البشر ضد الشر بطعم فاسد، يؤهلهم للابتعاد عن الخير ويجعلهم أكثر قبولاً للشر، وأكثر حماساً لتدمير الحياة.

رجعوا المجلة لمحمد

الدكتور مصطفى كمال حلمى رئيس مجلس الشورى وهى الجهة المالكة للصحافة القومية فى مصر، رجل يتمتع بسمعة طيبة ويحبه الجميع، وهو رجل وقور توحى تقاطيع وجهه الهادئه وصوته الخافت وحرصه على انتقاء ألفاظه بأنه يحيا فى سلام مع نفسه ومع الدنيا. وهو مثلنا جميعا يحلم، بعضنا بالطبع - مثل كاتب هذه السطور- يحلم ليل نهار، بينما هو بحكم حساسية وظيفته يحلم ليلا فقط.

حدث ذات ليلة أن شاهد فى المنام حلما غريبا. جاءته سيدة وقور فى المنام وقالت له: رجعوا المجلة لمحمد..ثم اختفت على الفور..

لم يهتم بالحصول على تفسير للحلم. ولم يلق بالا للمسألة ولكنه فوجئ بالحلم يتكرر، لمدة سبعة أيام متتالية ، تأتى نفس السيدة فى المنام لتقول له: رجعوا المجلة لمحمد.. ثم تختفى..

فى المجلس سأل أحد المسئولين الإداريين: هل هناك شخص اسمه محمد تقدم بطلب للحصول على ترخيص بإصدار مجلة؟

بحث المسئول الإدارى فى أوراق المجلس ولم يجد شخصا باسم محمد تقدم للحصول على ترخيص بإصدار مجلة أو جريدة.

وفى لقاء مع وكيل المجلس الأستاذ ثروت أباظة الكاتب الكبير، قال الأستاذ ثروت: حدث لي شئ غريب ياريس..

- خير؟!

- رؤيا فى المنام.. حلم تكرر كثيراً هذه الأيام، تأتينى سيدة فى المنام، أعتقد أنى رأيتها من قبل فِى مكان ما.. ولكن لا أذكر أين أو متى.. قالت السيدة..

قاطعة الدكتور مصطفى بهدوء قائلا:.. قالت لك رجعوا المجلة لمحمد..

فصاح ثروت: نعم.. بالضبط.. كيف عرفت؟ من هى هذه السيدة؟.. ومن هو محمد.. وأى مجلة تقصد..؟

فرد رئيس المجلس: لا أعرف.. ولكنها تزورنى أيضا فى أحلامى وتطلب منى نفس الشئ.. أنا أفضل أن نتجاهل الموضوع إلى أن تكشف هذه السيدة لنا عن المزيد من التفاصيل.. إذا كانت قادرة على زيارتنا فى أحلامنا والحديث معنا.. لماذا لا تفصح عن هدفها بوضوح؟

تحول الموضوع بعد ذلك لمادة للضحك والتندر وخاصة بعد أن

تدارسا احتمال أن تكون المعارضة عاملة لهما عملا.. أو تكون أجهزة المخابرات العالمية تمكنت من الوصول إلى طريقة تجعل بها السياسيِّين يحلمون أحلاما معينة.

فى نفس التوقيت، على جبهة المعارضة، زارت هذه السيدة فى المنام صحفيا شابا هو الأستاذ محمد عبد القدوس، وقالت له فى رقة وحنان ولهجة آمرة: روح يامحمد خد المجلة.. خلاص، أنا كلمتهم..

قالت ذلك واختفت على الفور.

حكى محمد الرؤيا لبعض زملائه واصدقائه الأتقياء فقالوا له: أبشر سنصل إلى الحكم قريبا ونستولى على السلطة.. المجلة هنا تعنى الحكم.. فالمجلة لغةً هى موضع الإجلال عند العرب.. كما نقول المحلّة، فالمحلّة هى المكان الذى يحل به المرء، والمحطّة هى المكان الذى يحط به المسافر، وبذلك تكون المجلّة هى المكان الجليل الذى يشعر فيه الإنسان بالإجلال والجلال والمجلة.. هذا المكان هو الحكم طبعا.. هذه الرؤيا فيها تبشير وفيها تحذير.. هى تحذرك وتطلب منك أن تتوقف عن الحديث عن الحرية والديموقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان الفرد..

ولكن محمد عبد القدوس لم يقتنع بهذا التفسير، وانتظر إلى أن زارته السيدة فى المنام مرة أخرى ، بعد أن انتهت من قول كلمتها وقبل أن تختفى قال لها: استحلفك بالله ياسيدتى ألا

تتصرفى.. بالله عليك، من أنت؟

فصاحت السيدة فى دهشة: ألا تعرفنى يابنى.. دقق فى ملامحى جيدا .

فصاح محمد وهو يرتعش: يا إله السموت.. جدتى.. روزاليوسف؟!

- نعم، أنا هى.. إذا كنت أنت لم تعرفنى، بالقطع لم يعرفنى مصطفى كمال حلمى ولا ثروت أباظة.. وأنا التى كنت أظن أن تقاطيع وجهى محفورة فى أذهان الجميع.

- آسف ياجدتى.. إنها المرة الأولى منذ سنوات طويلة التى أرى فيها سيدة غير محجبة..لو كنت محجبة لعرفتك على الفور.

- يابنى كنت فى حد ذاتى كتيبة من الرجال، الحجاب فى حد ذاته لايخلق الكبرياء.. لقد مارست التمثيل على خشبة المسرح.. واشتغلت بالصحافة حاسرة الرأس.. هل سمعت عنى كلمة واحدة..؟

- سمعنا عنك كل خير ياجدتى.. وكل مايدعو للفخر، ليت كل الرجال فى الصحافة مثلك.

- حسنا، أريدك، أن كنت صادقا، أن تكون مثلى.. إذهب الآن إلى مجلس الشورى واطلب منهم مجلتى.. مجلة روزاليوسف.. أنها ملك لك الآن.. أنت والورثة.

- ولكن ياجدتى.. هذه المجلة لها طبيعة خاصة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنها يسارية.

- يسارية فى عينك ياولد.. هذه المجلة أكبر من أن تكون يمينا أو يسارا.. هذه مجلة وطنية صنعتنى وصنعت أباك وصنعتك، وصنعت جيلا كاملا من الصحفيين الحالمين والنبلاء والحكماء.

والمجانين والمعتوهين..

روح خذ المجلة.. وحافظ عليها.. حافظ على اسمى.. أريد أن أنام مستريحة فى قبرى..

قالت ذلك واختفت، استيقظ محمد على الفور وهو يتصبب عرقا، ظل يقظا حتى الصباح، خرج من منزله مبكراً وجلس على مقهى على بابا فى ميدان التحرير، فى العاشرة والربع صباحا توجه إلى مكتب مديرة مكتب رئيس مجلس الشورى، وطلب منها مقابلة الدكتور مصطفى كمال حلمى وقال لها باختصار: قولى له محمد عبد القدوس.. أتى ممثلا للورثة ليتسعيد مجلة روزاليوسف.

لم ترد عليه مديرة المكتب نظرت له فى إشفاق ثم نهضت على الفور لتبلغ الرسالة، كانت تفكر فى أن الصحفى الشاب المسكين قد فقد عقله، كان ثروت أباظة جالسا مع الدكتور مصطفى كمال،

وبالرغم من أنها همست بجملتها إلا أن كلماتها كان لها وقع الانفجار، صمت رئيس المجلس تماما بينما صاح ثروت أباظة: آه .. يبقى الست اللي بتزورنا في المنام هي روز اليوسف.. وأنا أقول ياربي الست دي أنا أعرفها.. شفتها فين قبل كده شفتها فين؟.. قولي له يتفضل..

ودخل محمد قال لهما في إيجاز: زارتني جدتي في المنام.. وطلبت مني أن آتي لكم لأستعيد مجلتها.. قالت لي أيضا أنها زارتكما وأبلغتكما بذلك.

ابتسم الدكتور مصطفى وقال بلهجة حانية: آيوه يا عزيزي محمد.. لقد زارتنا بالفعل، ولكنك تعرف أن عملنا لايستند إلى الأحلام.. لانستطيع أن نعيد إليك مجلة تملكها الدولة.. أقصد يملكها مجلس الشورى بسبب حلم..

رد محمد بثقة: أحداث كثيرة وحاسمة في التاريخ، حدثت - بدافع من الأحلام التي رأها بعض البشر.

- نعم ياعزيزي.. ولكنها لم تحدث في الحكومات، على الأقل لم تحدث في أية حكومة مصرية. لا توجد سوابق في تاريخ مصر تشير لذلك.

يبدو أن محمدا كان مستعدا لمواجهة كل الاعتراضات، إذ رد بهدوء: هناك سابقة شهيرة ياسيدي.. حدثت في حكومة مصر

بالذات.. تعرفون بالطبع أن سيدنا يوسف عين وزيرا للمالية فى مصر القديمة بموجب تفسيره لحلم رآه فرعون.

كانت حجته التاريخية القانونية قاطعة ودامغة ولايمكن إنكارها، سكت الرئيس والوكيل وقد أسقط فى أيديهما وأخيرا قال ثروت: يامحمد.. الأمر يتطلب قراراً من رئيس مجلس الوزراء.. وأنا أتصور أنه سيرفض..

فقال محمد: هذه دولة إسلامية ياسيدي، لايحرم فيها شخص من ميراثه الشرعي..

- نعم، نعم.. هذا صحيح.

- سأترك لكم المطابع والمبانى.. أنا أطالب فقط باسم جدتى.. وهو حقى.. أو تدفعون تعويضا مقداره مليار جنيه..

- نعم..؟! ..مليار إيه؟

- مليار جنيه مصرى.. هذا اسم تجارى وفنى وأدبى وتاريخى وإعلامى ووطنى.. هذا أشهر اسم مجلة فى الشرق الأوسط.. لن أقبل أقل من ذلك.

قال الدكتور مصطفى: ما تقوله هو الخيال بعينه.. ولكى لا أكون مسئولا أمام ضميرى عن روح تتعذب فى قبرها.. سأعيد لك ملكية المجلة، وستأخذ الآن القرار باليد وتتوجه به الآن للاتفاق على إجراءات التسليم والتسلم.. اتصل بى عند حدوث أى

عقبات.. ولكن اسمح لى بسؤال هل ستحولها إلى مجلة دينية؟

فصاح محمد: أليست هى الآن مجلة دينية ياسيدى؟! عندما تبحث عن الحق والحقيقة، عندما تكشف الدجل والدجالين عندما تكشف القتلة واللصوص.. عندما تحارب الفساد، عندما تحارب الإرهاب.. أليس ذلك كله هو جوهر الدين؟.. أليس ذلك كله هو الإيمان الحقيقى؟

– ولكنك يامحمد إذا غيرت طبيعتها طبقا للرائج فى السوق الآن..

– لكى أخسر قراءها ياسيدى؟

– ولكنك ستضمن تمويلا كبيرا من جهات كثيرة..

– لست غبيا ياسيدى.. سيدفعون اليوم، ويلوون ذراعى غدا ثم ينسحبون بعد غد.. ولكنى عندما أعمل عند القارئ فسيدفع للأبد.. أنا أعطيه الحقيقة وهو يعطينى المال..

– عفارم عليك يامحمد.. أنت فعلا ابن إحسان وحفيد روز اليوسف.. تحب تاخذ صباح الخير كمان والا تسيبها؟

– آخذها على بركة الله.

جلالة الملك عبدالمنعم

المكان:دمياط.

الزمان:فى نهاية الأربعينات.

امتزت جدران محافظة دمياط بصرخات المحافظ وهو يصيح فى معاونيه: هاتوا لى عبد المنعم عبده... هاتوه فورا.

فى ذلك الوقت كان اسم الشاب عبد المنعم عبده على كل لسان فى دمياط فقد استطاع أن يسبح من دمياط إلى رأس البر وبالعكس عددا من المرات لست أذكرها فى برد دمياط القاتل، قطع فيها أكثر من مائة كيلو متر سابحا فى مياه أشد برودة من الثلج. كان يعمل "أويمجى" فى ورشة نجارة. "والأويمجى" - إذا لم تكن تعرف - هو ذلك النجار الدقيق الفنان الذى يحفر على الخشب ويحوله إلى زخارف جميلة يسمونها "الأويمة". لم يكن يعشق السباحة فقط، كان مجنونا بها.

قال المأمور: حاضر يافندم.. سأرسل بمن يقبض عليه فورا. ولكن ماذا فعل ياسيدى؟ أى حماقة ارتكب فيما عدا حماقته التى نعرفها جميعاً وهى رغبته المجنونة فى قتل نفسه عن طريق السباحة؟!

مرة أخري صاح المحافظ: تقبض عليه؟!.. أنا أريدك أن تأتى به فوراً إلى هنا معززا مكرما..

- حاضر سأرسل له بمن يحضره من الورشة.

- اذهب بنفسك يا حضرة المأمور.. إذهب بنفسك وأحضره إلى هنا فورا.

انطلق المأمور بسيارته إلى الورشة التى يعمل بها عبد المنعم عبده، عند ظهور المأمور فى الورشة شعر العمال بالرعب والذهول ولكن المأمور قال لهم برقة: فين عبد المنعم عبده؟

رد عبد المنعم وقد غاص قلبه بين جنبيه: أنا هنا يافندم.

- تعال يا عبد المنعم.

ركب عبد المنعم بجوار المأمور صامتاً إلى أن وصل إلى مبنى المحافظة . وفى مكتب المحافظ فوجئ به ينهض لاستقباله: أهلاً يا عبد المنعم.. اتفضل أقعد.

فجلس ولم يتخلص من خوفه بعد، استطرد المحافظ: عبد المنعم.. أنت مطلوب في مصر الآن.. هناك شخصية كبيرة جداً تريد أن تراك.

همس عبد المنعم: من ياسيادة المحافظ؟

وقف المحافظ إجلالاً: لن تصدق.. أريدك أن تتمالك أعصابك

وأنا أقول لك اسم من يريد أن يراك .. لا داعى لأن يغمى عليك .

عبد المنعم: أنا متمالك لنفسى وأعصابى.. لأننى واثق أننى لم أرتكب خطأ فى حق مخلوق.

صمت المحافظ للحظات ثم همس: صاحب الجلالة فاروق الأول ملك البلاد يريد أن يراك.

دق قلبه بعنف، اندفعت الدماء الحارة فى عروقه ثم شعر بالحجرة تدور من حوله ولكنه ظل يقظا للحظات ثم بدأ يغيب عن الوعى، كان آخر صوت سمعه هو صرخة المحافظ: كولونيا .

أفاق عبد المنعم بعد لحظات وبدأ يستوعب ما حدث، لقد اتصل القصر الملكى بالمحافظ وطلب منه أن يرسل عبد المنعم إلي القاهرة فورا لأن مولانا معجب به ويريد أن يراه الليلة فى أحد القصور الملكية حيث يقام احتفال بمجموعة من الرياضيين.

– عندك بدلة ياعبد المنعم؟

– لا يافندم.. ولكن عندى جلباب نظيف.

– نعم؟! جلباب .. تذهب تقابل مولانا مرتديا جلبابا.. هاتوا له بدلة وقميصا وشرابات وحذاء..

فى أقل من نصف ساعة أحضرت كل الاشياء، أخذ المحافظ يتأمل عبد المنعم فى ثوبه ثم صاح: فين الطربوش؟

لم يكن هناك وقت لشراء طربوش فخلع المحافظ الطربوش من على رأسه وألبسه لعبد المنعم وأنطلقت به سيارة لتلحق بالقطار بعد أن أعطوه العنوان الذى سيذهب إليه.

المكان: القطار بعد أن قام من دمياط فى طريقه إلى القاهرة.

عبد المنعم ككل الأشخاص الذين يحلمون بتحقيق المستحيل يتمتع بخيال شديد الثراء والخصوبة. ساعده صوت القطار الرتيب على أن يسرح بعيدا.. بعيدا جدا.

أخذت مشاهد من المستقبل تمر أمام عينيه وكأنه يشاهد فيلما. هو ينحنى الآن أمام جلالة الملك، جلالته يصافحه ، لابد من تحضير جملة فخمة ومؤثرة يقولها لجلالته.

- مولاى، إن عطفك سيدفعنى لعبور كل محيطات العالم.

لا.. فقد يصدق الملك هذا الكلام ويصدر أمراً ملكيا بتنفيذ ذلك.

- مولاى.. إن بلدا تحكمه جلالتك لابد أن يكون أهله كلهم من الأبطال..

مجاملة فيها مبالغة سخيفة لا معنى لها، ولماذا أكون مباشرا وصريحا معه، لماذا لا أكلمه عن متاعبى الحقيقية: مولاى، لست

أجد وقتاً كافيا للتدريب.. لابد أن أعمل طول اليوم لأكسب عيشي.. مولاى.. خصص لى عزبة صغيرة.. ولتكن مائة فدان مثلا، أعيش منها وأتفرغ للسباحة وأرفع رأس مصر عاليا.

لا.. سيقول الولد ده طماع.

حسنا.. لن أقول شيئاً.

أنا أقترب الان من الملك..

أهلاً ياعبد المنعم، إزيك.. أخبارك إيه؟.. أنا سعيد جداً بالعمل البطولى الذى قمت به.

– أشكرك يامولاى.

– هل تشكو من أي متاعب؟.. هل ينقصك شئ؟

– بعد أن شاهدتك وصافحتك يامولاى لم يعد ينقصنى شئ فى هذه الحياة، أنا الآن غنى جدا.

– أنت لست بطلا فقط ياعبده.. أنت مثقف وذكى ومن الواضح إنك ابن ناس أيضاً.

– نعم يامولاى، والسبب في ذلك أنك مليكي ومليك البلاد التى صنعتنى.

– هاها... اسمع ياعبد المنعم، هل لديك مانع فى أن تعمل هنا فى القصر الملكى.. مدربا خاصا للسباحة.. سأخصص من أجلك

جناحاً فى القصر بحيث تكون قريباً منى أستدعيك عندما أريد.. ما رأيك؟

- رغباتك أوامر تسعد رعاياك يامولاى.

هذا هو الجناح الذى سأعيش فيه إذن، يالها من مفروشات فخمة... والموبيليا، ياه، كلها من إيطاليا، وكل هذه الملابس من أجلى، وكل هذا الطعام الفخم المغذى، أحمدك يارب، ولكن كم سيكون مرتبى؟ أسكت ياحمار، لا تتكلم فى الصغائر، ومضت الحياة، أقوم بتدريب الملك على كل أنواع السباحة عدة مرات فى الأسبوع، يدردش معى، ما رأيك فى فلان؟ فلان هذا يعمل رئيساً للوزراء.. والله يامولاى هو كويس.. بس دمه تقيل قوى.. هاها.. أنت أيضاً تفهم فى البشر، نعم دمه ثقيل جداً..

وحدى فى الجناح بعد منتصف الليل، أنا عاجز عن النوم من فرط السعادة، صوت طرقات على باب الجناح.. مين؟ الطرقات مرة أخرى اتفضل أدخل.

ودخلت، ياإلهى هل هناك مخلوق بكل هذا الجمال والبهاء؟ لابد أنها حورية من الجنة، ابتسمت الحورية فاضاءت المكان وملأته دفئاً: ممكن أدخل؟

- اتفضلى يافندم.

- هل تعرفنى..؟

– أنت يا أنستى القمر والنجوم وكل الزهور الجميلة وقد تحولت جميعا لكائن حى.

– هاها.. أنت لا تجيد السباحة.. أنت بطل في الغزل أيضاً، هل حقا تعرفنى؟

– كيف لمصرى ألا يعرف أميرته الجميلة.. أنت الأميرة فوزية.

– لأ ياعبده.. بالنسبة لك أنا فوزية فقط، دعك من الرسميات.. أنت الآن واحد من الأسرة.

عند الفجر خرجت من الجناح ولكن ظل عطرها يملأ الجناح لعدة أيام.

هنا كان القطار قد وصل إلي محطة المنصورة، انتزع ضجيج الباعة عبد المنعم من أحداث المستقبل الجميل، اشترى سميطه وبنصف قرش طعمية وبقرش صاغ جبنة رومى.. عاود القطار سيره فعاد عبد المنعم ينعم بجناحه الملكى.

ومضت الأيام، بعد أن ينام كل أعضاء الأسرة الملكية كانت فوزية تأتى، كنت أترك لها الباب مواريا، يانهار أسود، ماذا يحدث لو علم الملك.

– مولاتى، اسمحى لى أن أحدثك عن مخاوفى.. إذا تسرب خبر لقاءاتنا لمولاى فسأموت خجلا قبل أن يقتلنى...

هاها.. عبده.. أخى يعلم بعلاقتنا، بل أكثر من ذلك، هو موافق على زواجي منك، إن ذلك يقوى مركز الأسرة في الحكم.. ويجعل الشعب - وخصوصاً فى دمياط - أكثر التفافا حولنا.. ماذا قلت؟

- لست أطمع ياأميرتى فى أكثر من أن أكون خادماً لك.

- ياعبده.. لا داعى للمجاملة.. أخى واقع فى مشكلة.. ليس له وريث للعرش، وولى العهد الأمير محمد على عجوز مخرف، إنه حتى لا يتكلم اللغة العربية، لابد من ولى عهد، مصرى، إبن مصرى، إبن مصرية، من الطبقة العاملة.. أنت ياعبده ستكون وليا للعهد، أمد الله فى عمر أخى، ولكن بعد عمر طويل ستكون أنت الملك.

هنا كان القطار قد وصل إلى محطة طنطا فشرب عبد المنعم زجاجة مياه غازية وعاد إلى جناحه فى القصر الملكى.

كانا جالسين فى لحظة انسجام، عبده وفوزية عندما اقتحمت المكان الملكة نازلى وصاحت فيهما: الجوازة دى مش لازم تتم.

صاحت فوزية: لأ.. سوف تتم، ليس من حقك حرمانى من سعادتى باختيار الشخص الذى أحبه.

- أتفضلى روحى جناحك.

خرجت فوزية غاضبة، قالت له الملكة نازلى برقة: تعال ياعبد

المنعم، إجلس هنا إلى جوارى.. أنت عاقل، ووطنى، وبطل، زواجك من فوزية ستترتب عليه متاعب مفزعة للأسرة وللشعب المصرى.

- سيدتى.. أنا على استعداد للتضحية ليس بحبى فقط، ولكن بحياتى أيضاً.

- هذا هو ما أتوقعه من شخص نبيل مثلك، رسمع ياعبده، سأعطيك مليون جنيه، وقصرا صغيرا فى أى مكان فى العالم، سيكون لك اسم جديد ، إسمك القديم سيختفى للأبد.. مفهوم؟

- مفهوم ياسيدتى.. وبدون فلوس والله.

- شخص واحد فقط سيعرف عنوانك ويزورك مرة كل شهر.. هذا الشخص هو أنا..

الملكة تمسك بيدى، ياإلهى.. ماذا حدث، الملكة تقبل أصابعى، ثم تقبل وجنتى، هى أيضاً تحبنى.. يادى المصيبة..

اختفت الملكة نازلى فى نفس اللحظة التى دخل فيها القطار محطة مصر. فى الموعد المحدد ذهب عبد المنعم إلى المكان المحدد فى العنوان، مئات الأشخاص يرتدون الردنجوت، السيدات فى ملابس السهرة الفخمة، حمام سباحة ضخم، الأنوار تتلألا فى المكان كله. واحد من موظفى الديوان الملكي يمسك بيد عبد المنعم ويقوده إلي حيث يوجد الملك فاروق المعظم.

- البطل عبد المنعم عبده.. اللى جلالتك طلبت تشوفه يامولاى.

مد الملك ذراعه فى فتور وصافح عبد المنعم، لم يتكلم ولكن ظهر على وجهه شبح ابتسامة ملكية خفيفة، تراجع عبد المنعم وانزوى في ركن، فجأة اقترب منه أحد الباشوات وصاح به وهو يمسك بكفه اليمنى: هل جلالة الملك صافح هذه اليد؟

- نعم.

- هاتها أبوسها.

بالفعل قبّل الباشا ظهر يد عبد المنعم ثم اختفى فى الحشد.. انتهى الحفل خرج كل الناس، وجد عبد المنعم نفسه وحيداً بجوار حمام السباحة بعد أن أُطفئت الأنوار وسادت الظلمة المكان.

خرج عبد المنعم إلى الشارع، ذهب إلى السيدة الفنانة ثريا حلمى في ميدان الأوبرا حيث كانت تعمل فى كازينو بديعة، هى علم دمياطى مثله، هى بطلة الفن وهو بطل فى السباحة، حكى لها ما حدث، أعطته جنيها لكى يتمكن من العودة إلي دمياط. أخذ الجنيه ولم يتوجه إلى محطة القطار أو الأتوبيس، سار على قدميه على الطريق الزراعى، شعر بأنه سيصاب بالجنون إذا توقف عن المشى لحظة. عندما وصل إلى المنصورة كان الحذاء قد تمزق تماماً، خلعه وألقى به في أحد الحقول وواصل المشى حافى القدمين مرتدياً البدلة والطربوش، الحمدلله الطريق من المنصورة

إلى دمياط ليس طويلا إنه ٦٥ كليو مترا فقط.

بعد ذلك تعلم عبد المنعم عبده أن يحقق أحلامه بنفسه، سبح من دمياط إلى بورسعيد لأول مرة فى التاريخ ثم عبر المانش عدة مرات وحتى الآن وقد تعدى السبعين من عمره يقوم بالتدريب يوميا لمدة ساعتين.ذات مساء من ثلاثين عاما قال لى وهو ينظر إلى السماء محدقا فى النجوم: هل تستطيع أن ترفع يدك لأعلى وتمسك بهذه النجوم؟..

تستطيع إذا توفر لك الإصرار على ذلك.

حكاية حمادة

حمادة طفل فى العاشرة من عمره ولكنه ناضج العقل إلى الدرجة التى تجعله يستاء عندما يعامله أحد بوصفه طفلا، وهو حاد الذكاء وذو قابلية عالية للدراسة والتحصيل، كما أنه حساس إلى حد أنه يشعر بالألم عندما يكون ترتيبه الثاني فى الفصل، فقد اعتاد منذ أن دخل مدرسة الحضانة أن يكون ترتيبه الأول.

قد تعتقد أنه من ذلك النوع من الأطفال الذين ينكبون على الكتب المدرسية طوال الليل، على العكس من ذلك، هو يذاكر لمدة ساعتين فقط كل يوم بانتظام طوال العام الدراسى، لأنه أيضا يهوى الرياضة ويعشق كرة القدم. كل هؤلاء الذين شاهدوه وهو يلعب الكرة الشراب فى شارعنا الهادئ أمام المنزل أو فى فريق أشبال النادى أجمعوا على أنه سيكون لاعبا ممتازاً. بل أن البعض منهم بالغ وقال إن طريقته فى التعامل مع كرة القدم تذكرهم باللاعب البرازيلى العظيم بيليه، بل إن رجلاً عجوزاً يعمل بواباً فى العمارة المجاورة قال أنه شاهد محمود الخطيب اللاعب الشهير، وهو يلعب عندما كان طفلا، وأكد أن حمادة سيكون

أفضل منه بكثير.

وحمادة أيضا متدين، يصلى الفروض فى أوقاتها ويصوم شهر رمضان، وهذا أمر طبيعى بالنسبة لطفل نشأ وتربى فى بيت يملأه الإيمان والورع، فأبوه هو المربى الفاضل الأستاذ أمين نزيه الحكيم ووالدته هي السيدة الفاضلة نبوية متولى إبنة الشيخ متولى المقرئ الشهير. كما أن حمادة مرح يحب النكتة الحلوة وله قفشاته الذكية التى تدل على سمو روحه ونبل تفكيره ويستطيع أن يحدثك عن الفروق الدقيقة بين رسامى الكاريكاتير ونجوم الفكاهة، هذه سطور قليلة أقدمه لك فيها بالرغم من أنها تظل قاصرة عن إعطائك ملامحه بدقة. وأنا أحدثك عنه اليوم بعد أن بلغتنى أنباء مبعثرة عن أحداث يعيشها حمادة الآن من شأنها - ما لم تتوقف - أن تعطل مسيرته وتقضى على روحه. بل قد تحوله لقاتل تظهر صورته فى صفحة الحوادث بعد عدة شهور. وهدفى من كتابتها، هو أن يخف أهل الحكمة والتقوى والرشاد لمساعدته وأمثاله ممن يتعرضون لنفس الأحداث.

وإليك الحكاية من بدايتها.

كنت أدور فى حجرتى كالأسد الحبيس باحثاً عن فكرة مضحكة ولو حتى من بعيد، وهو أمر أصبح فى منتهى الصعوبة هذه الأيام، بعد أن أصبح كل الكتاب تقريباً يكتبون أشياء

مضحكة، أقول فى هذه اللحظات التى لا أطيق فيها أن يكلمنى أحد أو حتى أرد على التليفون. اقتحمت زوجتى الغرفة وقالت: الأستاذ نزيه يريدك فوراً لأمر هام.

شعرت بالقلق، حدثنى قلبى بأن هناك كارثة حدثت أو على وشك الحدوث. فلم يحدث من قبل أن طلب الرجل معونة أحد من الجيران فى أى أمر، على العكس من ذلك، كلنا نبحث عنده عن النصح والمشورة بل والمعونة عندما نكون فى حاجة إليها، وجدت الرجل واقفاً أمام فتحة الباب مرتدياً الروب فوق البيجاما وقد علت وجهه علامات الضيق الشديد.

- أهلاً ياأستاذ نزيه... اتفضل.. خير؟

فقال محاولا إخفاء توتره: أرجو ألا أكون قد أزعجتك..

- لا أبداً.. اتفضل..

- شكراً.. أنا أريدك.. عندى مشكلة.

دخلت معه شقته، فى غرفة الصالون كانت السيدة زوجته تجلس وقد ملأت الدموع عينيها وكان حمادة أيضا جالسا والدموع تسيل على وجنتيه.

- خير يا جماعة؟!

- اتفضل.. قل له ياحمادة ما حدث.

بدأ حمادة يتكلم بصوت تخنقه الدموع في كلمات مبعثرة ينقصها الترابط، ثم انفجر باكياً، فصحت به في حزم: ياحمادة.. هل أنت طفل؟ أنت رجل، وأنت تعلم أنك رجل، والرجال لا يبكون.

قلت له ذلك وأنا أعلم إنني كاذب فيما أقول، فأنا أبكى الآن أكثر بكثير مما بكيت في طفولتى، بل لعلي لم أعرف البكاء الحقيقى إلا بعد أن وصلت لتلك السن التى يسمونها سن الرجولة.

هدأ حمادة وجفف دموعه في خجل ثم بدأ يتكلم في هدوء وبصوت واضح ملخصاً مشكلته: أنا واحد من أشبال النادى فى فريق كرة القدم، وأنت تعلم ياعمو مدى عشقى لكرة القدم، وتعلم أيضا مدى تديّنى وحرصى على دينى.

– وهل هناك تناقض بينهما أيها الرجل الصغير؟ إن الرياضة من أعظم أنواع النشاط الإنسانى للبشر، فهى تقوى أجسامهم وتجعل نفوسهم وأرواحهم أكثر صلابة، وتصرف العدوان والشر الكامنين فى أعماق البشر وتحولهما لصراع جميل فى الملاعب، وهى تقوى أخلاقيات البشر وتعودهم على تقبل النصر والهزيمة بروح رياضية متسامحة، ومن المستحيل أن يكون هناك تناقض بين كل ذلك وبين الإيمان الصحيح ياحمادة.

فرد حمادة مؤمناً على كلامى: هذا هو ما كنت أعتقده أنا

أيضا إلى أن ظهر فى النادى الأستاذ غريب الرجّال..

- من؟ غريب الرجّال.. من هو هذا الرجّال؟

- هو أستاذ فاضل، عُين هذا الأسبوع مشرفاً على الأخلاق فى النادى، وهو يحاضرنا عن القيم الإنسانية الصحيحة وعن أهمية الأخلاق.

- عظيم.. هذا أمر يشكر النادى عليه.. بالفعل، الرياضة وحدها تخلق الأجسام ولكن الأخلاق تصنع النفوس.

صمت حمادة للحظات ثم واصل: قال لنا الأستاذ غريب إن كرة القدم حرام.

أذهلتنى جملته وشعرت بصدمة لا حد لها وقلت: مستحيل ياحمادة أن يكون الرجل قد قال هذا الكلام.. تذكر كلامه جيداً.. ماذا قال بالتحديد؟

- بالتحديد قال إن الإنفاق على كرة القدم حرام.

أحسست بالارتياح، هناك فرق أكيد بين القول بأن كرة القدم نفسها حرام، والقول بأن الإنفاق عليها حرام، فقلت له ضاحكاً: يارجل ، أنت لم تفهم كلماته جيداً، هو يتكلم عن الإنفاق عليها.. هل أنت تنفق عليها؟ أنت تلعبها فقط ياعزيزى.

- ولكنى ياعمو أدفع اشتراك النادى لكى ألعبها.

– خلاص.. لا تدفع الإشتراك.

– سـأحـرم من اللعب، المسـألة أخطر من ذلك ياعـمـو.. لقـد أكتـشـفت أننى عـاجـز عن اللعب بالكرة، فى نفس اللحظة التى تقترب فيها قدمى من الكرة يعذبنى سؤال، هل ما أفعله الآن ضد الأخلاق وضد الإيمان الصحيح.. ثم مئات الاسئلة الأخرى، هل الأستاذ غريب محق فيما قال، أم أنه يكذب ولماذا يكذب علينا؟ هل من المعقول ياعمـو رجل كبـير فى السن ويكذب؟.. بالطبع هو لا يكذب.. لابد من الإبتعاد عن كرة القدم، ولكن كيف..؟ أنا أحبها.. إذن أنا شرير..

وبدأت أحس بالرعب، إن جهاز حمادة النفسى قد بدأ يختل توازنه، وهذا أمـر بالغ الخطورة على طفل فى تلك السن، لذلك قررت أن أخوض معركتى دفاعاً عنه وعن زملائه الأطفال مهما كان الثمن ومهما كانت النتائج.

وأخذت طريقى إلى النادى.

نحيل نحولة غير عادية، ممصوص الوجه، لاتستطيع أن تعطى وصـفا مـعيناً للون بشرته فوجهه بنى يميل إلى الإصـفرار مع مساحات من اللون الأزرق والأخضر متداخلة فى بعضها البعض. عيناه زائغتان وكأنه لم ينم منذ وقت طويل، صوته مشروخ، ذلك الشرخ الذى تجده دائما فى أصوات الكذابين، هو يشبه إلى حد

بعيد قاسم السماوى، ومع ذلك فقد قال كل من سألتهم عنه أنه رجل فاضل محب للخير وعلي خلق طيب. ذلك هو الأستاذ غريب الرجّال مسئول الأخلاق فى النادى.

كان جالسا يستمتع بالشمس الدافئة محدقاً فى تعاسة لبعض الأطفال الذين يلعبون فى الحديقة، اقتربت منه بهدوء ودخلت فى موضوعى مباشرة.

- أستاذ غريب، بلغنى أنك قلت لأطفال النادى أن لعب كرة القدم حرام.

رد بحدة: لم أقل ذلك.. قلت إن الإنفاق عليها حرام فى هذا الوقت بالذات.

- لماذا؟

- لأن علم الأخلاق يحتم مراعاة الأولويات، هل أطعمنا الجائعين؟ هل كسونا العرايا، هل وجدنا عملاً للعاطلين؟ هل زرعنا الصحراء؟ هل عالجنا المرضى؟ هل علّمنا الجاهلين؟ هل حررنا فلسطين؟ علينا أن نفعل ذلك أولا ثم نلعب كرة القدم وغيرها، وإلى أن يتم ذلك كله سيظل الإنفاق على كرة القدم حراماً .

قال ذلك ثم أخذ يتمتم بكلمات هامسة لم أسمعها، فى الغالب كان يلعننى فى سره، قلت له بهدوء: لكى نفعل كل ذلك ياسيدى،

لابد من الحصول على بشر أصحاء بدنياً ونفسياً وأخلاقياً وهذا أمر لن يتحقق إلا بأن يمارسوا الرياضة، وكرة القدم رياضة كما نعلم.

زفر زفرة حادة، ثم قال في نفاد صبر وكأنه يشرح لجاهل: إفهمني.. أنا لم أقل إن كرة القدم نفسها حرام، قلت إن الإنفاق عليها حرام.

– لنفرض أننى أريد مشاهدة مباراة كرة قدم فى الاستاد، هل تنصحنى أن أزوّغ من دفع ثمن التذكرة، أن أقفز من على السور مثلاً، أم أبحث عن مسئول يساعدنى على أن أشاهدها مجاناً.

– حتى لو شاهدتها مجاناً ، فهذا معناه أنك ضيعت وقتاً كنت تستطيع استثماره في عمل مربح تنفقه على نفسك وعلى أهلك وعلى وجوه الخير.

– تنصحنى إذن ياسيدى أن أشاهدها فى التلفزيون؟

فرد بسرعة وكأنه قد جهز من قبل كل الإجابات عن كل الأسئلة المطروحة على وجه الأرض، قال: هل التليفزيون عندكم يعمل بالهواء أم بالكهرباء؟ هل تحصل على الكهرباء مجاناً؟ أنت تدفع فيها فلوساً طبعاً، وهذا معناه أنك تنفق على كرة لقدم.

– حسناً، لكن أتفادى ذلك.. هل تنصحنى أن أشاهد المباريات في تليفزيون الجيران؟

- وهل الجيران لايدفعون ثمن الكهرباء؟ ألن يضطر الجيران لاستضافتك فى هذه الحالة، وقد يقدمون لك واحد شاى، أليست هذه نفقات كان من الممكن أن يوفروها وينفقوها فيما هو أنفع وأبقى؟

بدأت أتنبه إلى أن الأستاذ غريب مجادل رذل، ولكنى أكثر منه رذالة لذلك واصلت بهدوء: حسناً، لنفرض أن جيرانى يحصلون على الكهرباء مجاناً، لأنهم يسرقونها من الحكومة، ولم يدفعوا ثمن التليفزيون لأنهم سرقوه، ولن يقدموا لى شاياً أو طعاماً لأنهم بخلاء أوغاد، هل يحق لى فى هذه الحالة أن أشاهد مباريات كرة القدم عندهم؟

صرخ فى وجهى قائلا: وكيف تسمح لنفسك بأن تكون لك علاقة بمجموعة من اللصوص والأوغاد، معنى ذلك أنك وغد مثلهم، وحيث أن الأمر كذلك، أنا أطلب منك الانصراف من أمامى فوراً لأنى لا أطيق رؤية اللصوص..

بدأ رواد النادى يتجمعون حولنا فى دائرة أخذت تضيق تدريجياً بعد أن جذبهم صوته المرتفع، ظللت على هدوئى وقلت: الواقع أننى لست لصاً ياسيدى، فقد فشلت فى أن أكون بالرغم من محاولاتى الصادقة.. أما جيرانى فقد كانوا لصوصاً وهم الآن شرفاء بعد أن سرقوا ما يكفيهم للعيش شرفاء بقية العمر..

ولكن اسمح لي ياسيدى.. أنا مصر على أن أحصل منك على إجابات شافية عن الاسئلة التي تعذبني في مجال علم الأخلاق، لماذا كرة القدم وحدها؟ ماذا عن الباسكت وكرة اليد، والبنج بونج؟

وهنا صرخ: نعم.. كلها ضد الأخلاق.. كل ما هو مستدير ضد الأخلاق.. وعلى الناس أن تكف فوراً عن لعب كل أنواع الكرة.

- وهل الكرة الأرضية داخلة أيضاً في الممنوعات؟

- لأ.. لأنها ليست كروية، هي بيضاوية، وكل ما هو بيضاوي ضروري للإنسان، مثل البيض من حقك أن تأكله مسلوقاً أو مقلياً أو عجة.. أما "الأومليت" فليس من تراثنا.

- أفهم من ذلك ياسيدى أن البطيخ أيضا يدخل في الممنوعات؟

وهنا صرخ صرخة مروعة هزت أرجاء النادى وأخذ جسمه ينتفض وهو يصيح: أوع تجيب سيرة البطيخ، أيوه البطيخ ممنوع.. الشليان بالذات.. عاوز حاجة؟! إمش من قدامي ياعديم الأخلاق يامنعدم الضمير.

أدركت على الفور أن الرجل مريض وأنه ليس مسئولا عما يقول، لحسن الحظ كان أضعف مني، وإلا لكان قد هاجمني ومزقني إرباً. بدأت أفكر في أن في حياة هذا الرجل عقدة تنغص

عليه حياته وتدفعه للعدوان على البشر بحرمانهم مما يحبون، بدأت أتبين أن الطريقة الوحيدة التى أنقذ بها حمادة وبقية الأطفال هى أن أعالجه هو أولا.. لحسن الحظ كان حاضراً فى ذلك اليوم الدكتور "عادل .ص" وهو واحد من أشهر أطباء الأمراض النفسية والعقلية. تقدم منا الدكتور عادل وقال له بلطف: سيدى، أنت تعانى من مرض خطير هو.. بطيخ كومبلكس Bateekh Complex.

وهنا حدث شئ غريب لا يتوقعه أحد، انهار الأستاذ غريب فى نوبة بكاء حادة تمزق القلوب وكأنه طفل سرقت منه لعبته ثم أخذ يصيح: حرام عليكم.. هو البطيخ ورايا ورايا.. باكره البطيخ.. انتم عاوزين تجننونى..

●

أخذ بعض أعضاء النادى فى تهدئته بينما سحبنى الدكتور عادل إلى ركن بعيد فى النادى وقال لى: هو فعلاً مصاب بعقدة البطيخ، وهذه العقدة تؤدى للإصابة بأمراض بشعة أخطرها كراهية كل ما هو جميل فى الحياة.. لأن هذا المرض يجعل المريض به يكره الفاكهة بكل أنواعها، والأشياء الممتعة تذكره بالفاكهة لأنها أول شئ حلو يتذوقه الطفل، وفى النهاية تجعله يكره كل شئ يستمتع به البشر ومنها بالطبع كرة القدم.. لأن كرة القدم رمز مباشر للبطيخ.

– والله يا دكتور لست أفهم حرفاً واحداً مما تقول.. كل ما يهمنى هو إنقاذ أطفال النادى منه، النادى لن يستغنى عنه، لأن له أصدقاء أقوياء، كلهم أعضاء فى جمعية الأخلاق الحميدة، ما هو الحل؟

– الحل هو العلاج.. وهو علاج طويل.. علينا أن نقنعه بأنه مريض وفى حاجة للعلاج.

وبدأت رحلة العلاج.

كان من المستحيل إقناع الأستاذ غريب بأنه مريض، ولكن الدكتور عادل لجأ لحيلة بسيطة ولكنها ناجحة، اقترب من الأستاذ وقال له: أستاذ غريب، أنا واحد من أشد المتحمسين لك واوافقك بشدة على أن كرة القدم حرام، بل أنا أرى أن كل أنواع الكرة حرام وكل أنواع الرياضة حرام.. ولكن ألا ترى أن مجهودك فى هذا النادى ضائع وأنه لابد لدعوتك أن تصل إلى كل إنسان فى البلاد.

وهنا انتفخت أوداج الأستاذ وقال: وماذا أفعل ياعزيزى.. إيدى على كتفك.

– هذا ما جئت أحدثك فيه، إن الحكومة بسبيلها لتعيين مشرف عام على الأخلاق فى طول البلاد وعرضها، وطلبوا منى أن أرشح لهم شخصاً يتمتع بالمواصفات المطلوبة لهذا المنصب

الخطير.

– كم سيكون المرتب؟

– لا يوجد مرتب محدد لهذه الوظيفة، تستطيع أن تطلب بالتليفون من وزارة الخزانة أى مبلغ، بالإضافة للمبالغ والأشياء العينية التى سيقدمها لك كل فعلة الخير والغيورون على الأخلاق وهم كثيرون.

– تحت أمرك.

– ولكن اسمح لى، أنا أريد جلاء بعض النقاط عن خبرتك السابقة.. هل تتفضل وتأتى إلى عيادتى هذا المساء؟

– وهو كذلك.

وفى العيادة استرخى الأستاذ على المقعد "الشيزلونج" وأخذ يفضفض عما فى نفسه، قال: فشلت أن أكون شخصاً متميزاً، حتى عندما كنت طفلاً، كنت عاجزاً عن لعب كرة القدم، والكرة الشراب، والسيجة، وكل الألعاب التى يلعبها الأطفال، وفى شبابى لم أعرف ما يسمونه الحب. فقد كانت الفتيات ينفرن منى، وفى دراستى لم أكن متفوقاً، وكان أبى يكرهنى ويقول عنى أننى غبى، وكانت أمى تعاملنى بقسوة وإخوتى يكرهوننى والأطفال فى الشارع يرفضون أن ألعب معهم بدعوى أننى غلس أو غتت.

– ولكن لماذا تكره البطيخ؟

– البطيخ هو الفاكهة الوحيدة الخائنة المخادعة، إنها الفاكهة الوحيدة التي لاتفصح عن حقيقتها ولذلك فهي فاكهة ضد الأخلاق، فى كل مرة كنت أشترى فيها بطيخة كنت أكتشف فى البيت أنها قرعاء وطعمها مثل اللفت، عند ذلك كانت أسرتى تنهال على بالتقريع واللوم والسخرية.. وعندما تزوجت كانت زوجتى تتهمنى بأننى أبحث عن البطيخة القرعاء لأشتريها، فشلت فى حياتى كلها أن أشترى بطيخة حمراء، لذلك كرهت البطيخ وكرهت كل ما هو مستدير.

– متى بدأت تشعر بالرغبة فى حث الآخرين على الأخلاق الفاضلة والتمسك بالفضيلة؟

– بدأت هذه الرغبة تتكون عندى عندما اكتشفت أننى الوحيد على ظهر الأرض الذى يتمتع بالأخلاق والفضيلة وأن الآخرين، كل الآخرين لا أخلاق لهم، لأنهم لا يهتمون بى، لا يبجلوننى، لا يوقروننى، لذلك قررت أن أجعلهم يشعرون بالذنب دائماً، قررت أن أحرمهم من كل ما يسبب لهم الفرحة والسعادة، كان هذا هو طريقى الوحيد للقوة والنجومية. هناك عدد كبير جداً من البشر لديهم استعداد قوى للإحساس بالذنب، لذلك قررت أن أجعلهم يكرهون الحياة، يكرهون العمل، يكرهون الرياضة، يكرهون الفن،

يكرهون الموسيقي، يكرهون الابتسام، ويتحولون إلى مخلوقات تعسة متجهمة عاجزة عن التعامل مع الحياة.

– هل تشعر براحة فى ذلك؟

– نعم، راحة كبرى، فقد اكتشفت المهنة الوحيدة التى أتقنها، تحويل البشر إلى جماد.

– عندما يتم تعيينك مشرفاً على الأخلاق والفضيلة فى مصر كلها، هل ستستطيع ممارسة مهمتك بنفس الكفاءة التى تمارسها بها فى النادى؟

– نعم، إننى أطلب فقط أن تعطونى برنامجاً فى التليفزيون والإذاعة، وصفحة فى كل مجلة وجريدة. وأنا أتعهد أن أحول نهار المصريين إلى ظلام، وأن أسود عيشتهم فى عدة شهور، سأثبت لهم بألف دليل ودليل أن الديموقراطية والسينما والمسرح والموسيقى والرياضة والقراءة والكتابة والتفكير الحر كلها أعمال منافية للأخلاق والضمير الإنسانى.

– هل أنت واثق أنك ستنجح فى ذلك؟

– نعم، الزن على الودان أقوى من السحر، سأحاصر آذانهم وعيونهم وأمخاخهم فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار إلى أن أرغمهم على اتباع الأخلاق الحميدة.

- لنفرض أن بعض الناس عارضوا آراءك.

- هاها.. سأقول عنهم أنهم ضد الفضيلة وضد الأخلاق.. عند ذلك سيمزقهم أعوانى إرباً إرباً..

- هل سيكون لك أعوان؟ من سيكون أعوانك؟

- سيكون لى أعوان بالآلاف.. كل الجهلاء والمرضى، وذوى العقول المتحجرة والكسالى والعجزة وكارهى الحياة والفاشلين والمستفيدين من كل ما أقول، كل من يكره الحياة سيكون عوناً لى.

وهنا أنهى الدكتور عادل اللقاء قائلا: أنت بالفعل تستحق المنصب ياعزيزى.

فى صباح اليوم التالى قدمت مجموعة من أعضاء النادى استقالاتها والتحق حمادة بفريق الأشبال فى ناد آخر. وبعد عدة شهور مررت بالصدفة أمام سور النادى، فشاهدت مجموعة من الأطفال خارجة منه، كانت لهم جميعاً ملامح القتلة، من الواضح أن الأستاذ غريب قد علمهم قدراً من الأخلاق لا بأس به.

الأستاذ الحرامي

فى عددها الصادر بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٩٢، نشرت جريدة الجمهورية خبرا عن أستاذ فى الجامعة يتزعم عصابة لسرقة الشقق الفاخرة فى الأحياء الراقية، بلغ عدد الشقق التى سرقها ١٧٥ شقة حصيلتها أربعة ملايين جنيه. بعد نشر الخبر اهتزت الأوساط العلميةوالأكاديمية فى المنطقة اهتزازا شديدا ومازالت تهتز حتى مثول هذه الكتاب للطبع، وهى فى الغالب ستظل تهتز عددا من السنوات. وفور نشر الخبر انطلقت مجموعة بحث بإشرافى من قسم الجرائم الطريفة بالمعهد العالى لدراسة جرائم العصر. لكشف المزيد من تفاصيل الواقعة.

كان لقاؤنا الأول مع رجال المباحث، قال لنا العميد "ى. ز." الذى أشرف بنفسه على خطة البحث التى قادت إلى القبض على الأستاذ: نحن نحاول من خلال الطريقة التى تتم بها الجريمة، أن نرسم ملامح الفاعل وطريقته فى التفكير ومنهجه فى السرقة، فلكل لص منهجه فى العمل، وفى كثير من حوادث السرقة كان

من السهل التعرف فورا على الفاعل من الطريقة التى اقتحم بها الشقة ومن نوع المسروقات، غير أننا تخبطنا فى ظلام كثيف فيما يختص بسرقة هذه الشقق بالذات، ومع ذلك تمكنا من رسم ملامحه على النحو التالى: اختياره للشقق الفخمة والأحياء الراقية يدل على أنه شخص أرستقراطى متميز اجتماعيا، ظهوره فى هذه الأماكن لايلفت إليه الأنظار، كما أن اختياره للتحف التى يسرقها من الشقق يدل على ذوق رفيع وخبرة لاتتأتى للكثيرين. إذن هو شخص تلقى تعليما راقيا رفيعا، يعنى أكثر من الليسانس أو البكالوريوس، فى الغالب حاصل على الدكتوراه، كما تعرفون هناك أشخاص معينون يتعاملون مع الأشياء المسروقة، راقبناهم بدقة فلم نعثر على أثر لأى شئ سرق من هذه الشقق الـ ١٧٥، أذن هو لايلجأ لهم، .معنى ذلك أنه من خارج"كادر اللصوص المحترفين" وأنه يبيع المسروقات بنفسه لأشخاص ينتمون لطبقته الاجتماعيه، وبذلك لايثير الشك عندهم. معنى ذلك أنه بعيد بالمقاييس الاجتماعية عن دائرة الشك، ترى ماهى الطبقة أو الفئة التى لايمكن أن يشك فى سلوكها مخلوق؟

فكرنا كثيرا فى الإجابة فلم نصل لشئ، فاللصوص الآن ينتمون لكل الطبقات والفئات، غير أنه للحقيقة واحد من رجالى الشبان قال: هناك احتمال كبير فى أن يكون اللص أستاذا فى الجامعة.

ولكننا استبعدنا هذا الاحتمال على الفور، فأنواع الانحرافات التى تصيب أساتذة الجامعة ليس من بينها سرقة الشقق. عدنا للتفكير فى هذا الاحتمال بعد أن وجدنا أحد البلاغات يقول إن من بين المسروقات كتب طه حسين ونجيب محفوظ وشكسبير والموسوعة البريطانية. إذن اللص مثقف فعلا، اتصلنا بزملائنا فى أمن الدولة فقالوالنا: استبعدوا المثقفين المعروفين، فلا واحد فيهم لديه الشجاعة الكافية لسرقة شقة. وحتى إذا قرر واحد منهم أن يتحول لحرامي شقق فسنعرف ذلك قبل أن يشرع فى التنفيذ.

وعموما هم لفرط ثقافتهم يسرقون أشياء أخرى بطريقة قانونية تماما.

عدنا للتخبط فى الظلام. وأخيرا أبلغتنا مصادرنا السرية بالحقيقة المفجعة، الفاعل هو"ل.م." أستاذ الجامعة المعروف الذى أنهى إعارته إلى بلد عربى منذ ثلاثة أعوام. وهنا بدأنا حملة مكثفة من التحريات والمراقبة اللصيقة بأقصى مانملكه من حذر، أى خطأ منا فى الاستدلال ستترتب عليه نتائج فظيعة، لابد من أدلة دامغة واضحة وإلا تعرضنا لمتاعب كبيرة، ولكم أن تتخيلوا مدى حزنى عندما تأكدت من صحة التحريات، لقد كان أستاذا لأبنى فى الجامعة، وعرفت منه أنه ليس أستاذاً عاديا، بل هو عبقرى. يحب المادة التى يدرسها ويتقنها ويحرص على أن يخرج

كل طالب من محاضرته وقد استوعبها تماما.

لقد قبضنا عليه متلبسا، وعاملناه بالاحترام اللائق به، هو ايضا تعاون معنا بإخلاص واعترف بكل سرقاته، وحدد موقع كل شقة بدقة متناهية، بل ذكر تفاصيل المسروقات بنفس الدقة وكأن عقله أرشيف.. سترونه بعد لحظات، سأترك الغرفة لكى يتكلم معكم على راحته، ولكنى أرجو الا تكون أسئلتكم له هجوميه، يكفيه ماهو فيه.

ودخل الأستاذ "ل.م" فى حوالى الخمسين من عمره، يتحرك بخفة وثقة، على وجهه نضارة، وسيماً يرتدى نظارة أنيقة وسويتر رمادى وبنطلون كحلى، رحبنا به وقلنا له: نحن من قسم التحقيقات بمعهد الجريمة.

فضحك بوقار: أعرفه.. فقد سرقت شقة في العمارة المواجهة له..

وجهنا له السؤال التالي: يا أستاذ، صف لنا شعورك الآن..هل أنت نادم؟

فضحك ضحكة مجلجلة وقال: سؤال تليفزيونى.. نادم لماذا؟ هل فعلت مايستحق الندم؟ هل اللصوصية هذه الأيام تستوجب الندم؟ أنا أعانى فعلا الآن من لحظات قاسية إلى حدما.. ولكنى سأتخلص منها سريعا.. إنها خبرة جديدة اكتسبتها وكان يجب

أن أمر بها، ومالايقتلنى فهو يزيدنى قوة، وعلى الإنسان أن يتعامل بهدوء وصلابة مع حلو الحياة ومرها، لن يحدث لى شئ، سأرحل إلى النيابة الآن، ثم تفرج عنى النيابة بكفالة، وستحكم لى المحكمة بالبراءة، أو تطول إجراءات القضية إلى أن أسرق ١٧٥شقة أخرى.

-ماذا؟.. أنت معترف ياأستاذ.. وهناك المسروقات والأدلة.

مرة أخرى ضحك وقال: الاعتراف لم يعد سيد الأدلة، بل هو أهيف الأدلة، سأقول أمام النيابة أن اعترافاتي انتزعها منى رجال المباحث بالتعذيب.. ضرب وكهرباء فى أماكن حساسة وكرابيج وتعذيب نفسى ومعنوى، أما هذه المسروقات فلا أعرف عنها شيئا وهذه الأدلة ملفقة، والشهود كلهم شغالين مع البوليس.

- ولكن لا يوجد على جسمك أية آثار للتعذيب أو المعاملة السيئة.

-ستوجد.. ليست هذه مشكلة، ستوجد فى طريقى من هنا للنيابة، المهم هو أن تكون الأوراق والمستندات سليمة. سأطلب من النيابة إثبات أننى تعرضت للتعذيب، عند ذلك أطعن فى التقرير بالتزوير، فاكسب خمسة أعوام أخرى من الحرية والشقق، أنا متفائل بطبيعتى، أليس من الجائز أن يصدر قانون بعدم تجريم سرقة الشقق؟ وعموما هذه هى السابقة الأولى، ألا تقرأون كثيرا

عن القبض على شخص مطلوب فى ٧٠ حادث سرقة؟ أو القبض على بلطجى مجرم هارب من تنفيذ ٢٠٠ حكم ، أو لص منازل مطلوب القبض عليه لتنفيذ أحكام قيمتها ٥٠٠ سنة.. اطمئنوا لا داعي للفزع.

-نفهم من ذلك أنك واثق من أنك لن تتعرض لأى خطر؟

- لا طبعا الخطر الحقيقى يأتى عندما أمتنع عن سرقة الشقق، لن أتمكن من أن أعيش الحياة الفاخرة التى أعيشها الآن.. ومع ذلك لاتنسوا أن "نيتشه" قال: عش في خطر.

-ولكن ياأستاذ من الناحية الأخلاقية، الا تدرك بشاعة مافعلت؟

وهنا صاح فى إستنكار: بشاعة؟.. هذه كلمة كبيرة، أين البشاعة فيما فعلت؟ لقد سرقت شققا فاخرة، كيف يمكن لمخلوق أن يكون لديه شقة فاخرة بشكل طبيعى وقانونى؟ هل سرقت شقق العمال والفلاحين؟ هل سرقت من ميزانية القطاع العام بحيث أسبب ضررا لجموع الناس؟ إن الضحية فى كل مرة، شخص واحد، قادر مقتدر، أحيانا كنت أسرق شقة فخمة فيعود صاحبها ويؤثثها بشكل أكثر فخامة فأسرقها مرة أخرى فيجعلها أكثر فخامة إلى أن أشعر بالملل من تكرار السرقة من شقة واحدة. ماهو الأكثر بشاعة؟ أن تسرق شقة أو تسرق عقل أمة

بأن تعلم أولادها الجهل وتملأ عقولهم بالظلام؟ لاداعى للنفاق ياسادة.. ضميرى مستريح جدا لمافعلت.

- ولكن ياأستاذ، كيف كانت البداية؟

أجاب: كانت البداية عندما سجنت فى قضية سياسية وفى السجن أسعدنى الحظ بالتعرف على الشقى الخطير.."عبده بومبة" وهو واحد من أعظم لصوص المساكن فى مصر.

عبده بومبة

لاحظ عبده بومبة أن كل المسئولين فى السجن ينادون هذا النزيل الجديد بكلمة دكتور، فاستنتج أنه طبيب أوقعه سوء الحظ أو الطمع أو الإهمال فى جريمة طبية، ذات يوم ذهب إليه يشكو من ألم فى معدته فضحك الأستاذ وأخبره أنه حاصل على الدكتوراه فى العلوم النظرية وليس فى الطب وأنه يعمل أستاذا فى الجامعة.

-لماذا أنت هنا إذن؟

- حظ ..

- مش فاهم، هل ضربت العميد، هل ضربت أحد زملائك، هل قتلت أحد الأشخاص؟

– لأ، أنا مسجون فى قضية سياسية.

كان المعلم عبده يفخر دائما بين زملائه بعلمه الغزير، فهو يفهم فى كل شئ، بل أنه كان يفخر بأنه يفهم الكفت، ولكن أحدا من زملائه لم يسأله ماهو هذا الكفت؟ لأنه يتضايق من الأسئلة، وعندما كان يتضايق كان يفقد أعصابه وينهال ضربا على محدثه. حاول المعلم عبده الاستعانه بكل قدراته العقلية غير أنه عجز عن فهم معنى أن يسجن أستاذ فى الجامعة أو أى شخص آخر فى قضية سياسية ولكنه فى حدود معلوماته قال : آه.. فهمت.. حضرتك ضربت واحد من بتوع السياسة.

فأجاب الأستاذ برقة ولكن بحزم: أنا لست من النوع الذى يضرب الآخرين يامعلم، أنا مثقف، أنا أستاذ، أنا مسئول عن تعليم أجيال من الشباب. باختصار، أنا ضد الحكومة.

وهنا تهلل وجه المعلم عبده بالفرحة ومد له يده صائحا بحماس: كفك ، أنا كمان ضد الحكومة، وكل الزملاء هنا ضد الحكومة.

فقال الأستاذ محتجا: أنا ضدها لأسباب مختلفة يا معلم عبده، بينما أنتم ضدها لأنها تطاردكم وتقبض عليكم وتعاقبكم لأشياء تعتبرها جرائم.

هرش المعلم عبده فى رأسه وهو ينظر له بغباء: كيف تكون

مختلفا عنا، وأنت مسجون معنا وتنام معنا فى نفس العنبر وعلى نفس الأرض، أكيد الحكومة هى التى أتت بك إلى هنا، أم أنك هنا تستمتع بالأجازة، أنت هنا تقضى مدة عقوبة مثلنا تماما..أو تنتظر المحاكمة.

السؤال هو، هل حضرتك تكسب مثلنا؟

يقول الأستاذ (ل.م) إنه بدأ فى تلك اللحظة يفكر فى وجاهة منطق المعلم عبده ومافيه من صدق وموضوعية. أنا هنا فى قضية سياسية، لم يدخل جيبى منها مليم واحد بينما زملائي جميعا هنا بعد أن تمتعوا بالأموال التى جمعوها من جرائمهم. إذا كان لابد لى من الصراع ضد الحكومة، لماذا لا أتبنى(أفعالا) ضدها. إن الحياة صراع ولكل صراع وسائله، كل إنسان يحاول الحصول على مايريد عن طريق العمل، أو مايسمونه العمل الشريف، ولكن هل يتساءل الانسان بالفعل عن حجم الشرف فيما يقوم به من عمل. ماهو حجم الشرف فى سلوك أستاذ يسرق رسالة الدكتوراه، أو يرغم تلامذته على الحصول على دروس خصوصية أو يرغمهم على شراء ملازم لا لزوم لها، أو يضيع وقتهم بامتناعه المفاجئ عن حضور المحاضرة.

عند هذا الحد من التفكير قال للمعلم: يا معلم عبده، كلمنى عن نفسك ، عن أحوالك عن طبيعة عملك.

فقال المعلم بفخر: أنا عبده بومبة، سموني بومبة لأنني أفرقع أتخن قفل أو كالون، لا يوجد باب شقة على وجه الأرض قادر على الوقوف في طريقي أو الصمود أمامي، ولقد كان من الممكن أن أظل حرا طليقا أمارس مهنتي للأبد ولكن الأشرار كثرون والمهنة لمّت، أصبحت مهنة من لا مهنة له، هناك أشخاص من الهواة دخلوا المهنة حديثا، يعترفون على أنفسهم وعلى زملائهم من أول قلم، أو أول تعليقة أو أول خرزانة، لقد كنت أعمل بمفردي، ولكني وقعت في قبضة المباحث عندما عطفت على بعض اللصوص الهواة الفقراء وأشركتهم معي في العمل، وهانذا أدفع ثمن عطفي عليهم.

فقال الأستاذ: ينقصهم الإيمان بالقضية يامعلم، حتى في اللصوصية ولا مؤاخذة لابد من التنظيم العلمي للعمليات، لا عواطف في العمل، لا عواطف في السياسة والحرب، أنت سقطت في قبضة المباحث لأنك تنكرت للنظرة العلمية.

بالطبع لم يفهم المعلم عبده حرفا واحدا من كلمات الأستاذ إلا أنه أمّن على كلامه بحرارة، فقد أدرك بغريزته كلص قديم خبير في النفس البشرية أن محدثه يمر بلحظات من التعاسة الشديدة تجعله أقرب مايكون للجريمة لذلك قال له في شبه توسل: ماتشتغل معانا يا أستاذ، إحنا فعلا ناقصنا كل اللي بتقول عليه.

ضحك الأستاذ من قلبه وقل: عشان لومسكونى أتسجن؟!

-ماهو أنت مسجون دلوقت يا أستاذ.. وكل شوية حايسجنوك.. ومادام سجن بسجن، أتمتع لك يومين، أنا معاك إنها شغلانة خطرة شوية.. لكن الحياة بطبيعتها كلها خطر فى خطر.. انت ممكن تبقى شخص شريف جدا وتمشى على رجليك فى شارع وتقع فى بلاعة وتموت، وممكن تموت من طلقة طايشة فى فرح.. وممكن تبقى شريف ويتقبض عليك فى حاجة مالكش دعوة بيها.. الخطر موجود حوالين الانسان في كل لحظة.. وبعدين حايتقبض عليك إزاى؟..

مين حايشك فيك؟.. إذا كنا احنا ياجهلة فين وفين لما يتقبض علينا وبعدين نهرب أو نخرج بكفالة ونهرب.. إنت بقى مثقف.. مثقف أكثر من الحكومة.. هى المباحث فيها أساتذة جامعة؟ ده لو حضرتك خططت لنا الشغل ورسمته، ممكن نعمل ملايين، وفي الآخر نتوب، أنا أفتح معرض سيارات، وأنت تفتح جامعة خاصة، حتى لوماتبناش، ممكن فى الآخر مانشتغلش ونطلّع أجيال جديدة من الحرامية.

أحنا عندنا مشكلة واحدة بس، عدم القدرة على تصريف المسروقات، لأن سمعتنا سيئة وعندنا سوابق كثيرة وأصحاب المحلات اللى بيشتروا منا المسروقات هم اللى بيبلغوا عنا..

حضرتك بعلمك وثقافتك حاتحل لنا المشلكة دى.

-وسمعتى يامعلم؟

-ياسعادة البيه، هو فيه حد مش حرامى، اللى ماسرقش لحد دلوقت يبقى بيستنى فرصة يسرق فيها. إسألنى أنا، أنا حرامى وفاهم.. ده فيه ناس ماهيتها ٢٠٠ جنيه فى الشهر، أنا شخصيا سرقت من شقتهم حاجات بمائة ألف جنيه.

-وأفرض كان حظى سئ واتقبض علّى؟

- ياسيدى ماأنت مقبوض عليك دلوقت.

-أيوه.. بس مش فى قضية سرقة.

-حد حايصدق أنك مقبوض عليك فى قضية سرقة، كل الناس حاتقول إن الحكومة لفقت لك قضية سرقةوتبقى بطل، يابيه صدقنى مافيش حد فى مصر كلها عنده فرصتك، انت ممكن تبقى أعظم حرامى فى مصر، وفى الآخر تبيع مذكراتك ويطلع عنك أفلام.

كان الأستاذ خرمانا، منذ عدة ساعات لم يتناول نفسا من سيجارة وقد أبت عليه نفسه أن يطلب نفسا من زملائه. فقال بود للمعلم: معاك سجاير يامعلم؟

فاخرج المعلم على الفور علبة كاملة أعطاها له: يا سعادة

البيه، أطلب أى حاجة، أى حاجة يعوزها مزاجك موجودة.

فى تلك الليلة، كسبت الجريمة عنصرا مثقفا، واجتمع زملاء العنبر حوله فى المساء يستمعون إليه باهتمام وهو يحاضرهم عن اللصوصية بين الأصالة والمعاصرة.

الإنسان حيوان حرامى

كان موضوع المحاضرة هو " اللصوصية بين الأصالة والمعاصرة"وإاليكم نص المحاضرة التى حصلنا عليها، ننشرها بعد أن وعدنا أصحاب الشأن بعدم الإفصاح عن طريقة الحصول عليها. ولكننا ننبه القارئ بشدة بأننا لسنا مسئولين عن أى حرف جاء بها وأن كل الأفكار الواردة بها تعبر عن رأى صاحبها كما أنها لا تعبر بالضرورة عن رأى فريق البحث الذى تشرفت برئاسته فى هذه المهمة. ع.س

زملائى.. مساء الخير وليلتكم فل بإذن الله.

حاول علماء الاجتماع والفلاسفة على مر السنين إنكار حقيقة هامة وذلك بتجاهلها أو إخفاء ملامحها أو محاولة تجميلها، هذه

الحقيقة تقول إن الإنسان " حيوان حرامي"نعم هذا هو الأصل في الإنسان، وهذه هي حقيقته مهما حاولوا الإنكار، قالوا إنه حيوان ناطق، أو حيوان ضاحك، أو حيوان ذو تاريخ ولكن الحقيقة التي يؤكدها التاريخ هي أنه حيوان لص.

لقد بدأ الإنسان قبل التاريخ إشباع حاجاته عن طريق الحصول على الثمار ثم الصيد والقنص ثم جاءت مرحلة الاستقرار والزراعة على ضفاف الأنهار، عندما كانت تعجبه أنثى كان يحصل عليها مستخدما قوته العضلية وليس مركزه الاجتماعي ومركزه المالي. إن القوة كانت هي مصدر الشرعية الوحيد على وجه الأرض. هذه الثمار التي كان يحصل عليها من الأشجار هل كان يدفع ثمنها؟ هل كان يستأذن الآخرين في الحصول عليها؟ هل كان يقول لهم: عن إذنكم سآخذ هذه الجوافة، أوهذا العنب، أوهذا التين؟ طبعا لا كان يأخذ مايريد بالقوة، يعني كان يسرقه. وعندما كان يخرج للصيد هل كان يقول لنفسه:سأترك هده الغزالة لفلان؟ أم كان يقول: سأمسك بهذه الغزالة وأشويها وآكلها أنا وامرأتي، وبالطبع كان يأكلها نيئة في البداية، فقد كان متوحشا، أسنانه أشبه بالأنياب وذلك قبل أن يعرف الشواء، الذي لم يعرفه إلا في عصر الكفتة والكباب، ثم جاء عصر تال ظهر فيه بعض البشر الأوغاد الضعفاء من العاجزين عن الحصول على الثمار غير القادرين على الجري

خلف الغزلان، الفاشلين فى صيد السمك، هؤلاء الضعفاء بدأوا لضعفهم وعجزهم يخترعون مايسمى بالقانون، بدأوا يحدّون من حرية الإنسان ويضعون أمامه الحواجز والقيود، هذه هى أرضك وهذه هى أرض فلان، لا تأخذ ثمارا من الأشجار الموجودة فى أرض فلان ولاتصطاد الغزلان، والجواميس من أرض علان، ممنوع عليك أن تصطاد السمك فى هذا الجزء من النهر، لأنه تابع لأخيك فلان.

هذه هى بداية مايسمى بالقانون، ثم بدأ هؤلاء الأوغاد العاجزون أصلا عن السرقة ينفذون هذا القانون بفرض العقوبات. ولكن تنفيذ هذه العقوبات يتطلب وجود مجموعة من الرجال الأقوياء المتفرغين لتنفيذ القوانين.

عملية التفرغ هذه تمنعهم بالطبع من جمع الثمار والصيد والقنص يعنى تمنعهم من السرقة، لذلك أصدروا قوانين أخرى تتيح لهم الحصول على الثمار والسمك واللحم بدون مخاطر. يعنى هم باختصار يسرقون السارقين فى حماية القانون الذى اخترعوا بنوده ولكن هل امتنع الأنسان عن السرقة؟ هل نسى أصله؟ هل تخلى عن طبعه وطبيعته؟

طبعا لأ لحسن الحظ. وهنا بدأ الصراع الأبدى بين الإنسان الحرامى ورجال القانون. إن الوعى بهذه الحقائق التاريخية أمر

لازم لأعادة الثقة إلى أنفسكم بأنكم أنتم الأصل وهم الأستثناء بالرغم من نجاحهم الساحق في تشويه صورتنا في عقول البسطاء. لقد بنى التاريخ على اللصوصية، وكل الحضارات التى تسمعون عنهابنيت على اللصوصية التي تحميها الجيوش، وأعظم الأقوياء فى التاريخ هم أعظم اللصوص، ومن الطريف أن المؤرخين بوعى أو بلا وعى يمجدونهم ولايتهمونهم مطلقا باللصوصية، لماذا؟ لأنهم كانوا أقوياء، وأنت عندما تكون قويا تستطيع فرض الكلمات والمعانى التي تريدها. هذا هو مايجب أن نبحث عنه أيها السادة الزملاء، أن نكون أقوياء.

ولكن في هذا العصر الظالم التعس، يتمتع رجال القانون بقوة هائلة، عندهم سجون، وسجانون، ورجال شرطة، ورجال مباحث، ووكلاء نيابة، وقضاه، وعندهم أيضا صحافة يستطيعون عن طريقها تشويه سمعتنا. فماذا نفعل لإعادة التوازن الطبيعى بيننا وبينهم؟ ماذا نفعل لإعادة الحق إلى نصابه؟ ماذا نفعل لكى نعود بالإنسان إلى أصله وسلوكه الطبيعى، ماذا نفعل لكى نعيد للصوصية وجهها الأصيل الجميل، هذا هو السؤال كما يقول هاملت.

إذا كانوا هم أقوياء بسجونهم فنحن أقوياء بذكائنا، إذا كانوا أقوياء بالتشريع والقانون، فنحن أقوياء باللصوصية، إذا كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم يحافظون على خير المجتمع فنحن بدورنا

نحافظ على خيرنا ونحن بالقطع جزء هام من هذا المجتمع، بل نحن الجزء الأصيل فيه الذى مازال يتمسك بتقاليد الأجداد. إن ميزتنا الوحيدة هى أننا لانعرف النفاق ولانخشى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، نعم نحن لصوص، ولنا الحق أن نفخر بذلك.

عند تلك النقطة ارتفع صوت الأستاذ (ل.م) قائلا: أهتفوا معى بصوت خافت.. نعم نحن لصوص.

فهتف الجميع مرددين وراءه: نعم نحن لصوص.

ثم أخذوا يرددون بعض الهتافات المشابهة وأستولى عليهم الحماس..بالروح بالدم نفديك يا أستاذ.

فأبدى الأستاذ اعتراضه وقال: لا ياحضرات، لاداعى لهذه الشعارات اتركوها للشرفاء المنافقين ، فنحن نختلف عنهم فى أننا نعنى مانقول.. أنا مجرد شخص على وشك الأنضمام إلى عالم اللصوصية.. صحيح أنا أكثر منكم علما وثقافة.. ولكنكم أكثر منى تمرسا وخبرة، سأضم ثقافتى النظرية إلى خبرتكم العملية لصنع عالم أفضل يزدهر فيه اللصوص واللصوصية، وهذا الوقت الضائع فى السجن سنحوله إلى "كورسات" مفيدة يحكى فيها كل منكم خبرته العملية، ومن محصلة كل هذه الخبرات نخرج بنظرية متكاملة نسرق الآخرين بموجبها بعد أن نوفر لأنفسنا أكبر قدر من الضمانات وليكن شعارنا هو " أنا

أسرق، أذن فأنا موجوذ".

وأسمحوا لى بالرغم من خبرتى القليلة النظرية المستمدة من قراءة صفحة الحوادث. أن أبدى بعض الملحوظات.. هناك جملتان خالدتان تترددان دائما فى صفحات الحوادث، الأولى هى وعند مواجهته بالأدلة الدامغة انهار واعترف. والجملة الثانية هى: وتم القبض عليه بعد أن شوهد وهو ينفق ببذخ فى محلات شارع الهرم.هاتان الجملتان تمثلان نقطة ضعف رهيبة فى عالم اللصوصية، عيب أن تنهار وتعترف فى مواجهة أيه أدلة مهما كانت دامغة.

وهنا تدخل عبده بومبة لأول مرة فى المحاضرة، قال: لوسمحت لى ياأستاذ، الأدلة الدامغة ليست إلا مصطلحا شهيرا، يعنى الضرب، فلاوقت لديهم للحصول على أدلة.

فرد الأستاذ: أعرف ذلك جيدا، مهمتك هى أن تصمد للضرب والتعذيب، ولاتنهار معترفا، والسبيل الوحيد لذلك هو الصلابة الروحية والنفسية، أن تشعر فى أعماقك أنك تمارس عملا نبيلا، أن تؤمن بأنك تعذب من أجل مبادئك، عند ذلك لن تشعر بالم الضرب والتعذيب.. أن تثق بأنك رجل والرجال لاينهارون، أن تؤمن بأنك تدافع عن قضية وفى سبيل هذه القضية يهون كل شئ، وذلك بالإيحاء الذاتى، أن تقول لنفسك بفخر وكبرياء أثناء

الضـرب، أنـا لص، أنا حـرامى، أنا الأصل، أنا الحـقـيـقى وكل الآخرين أوغاد، هذه الضربة لم تقتلنى، سأتحمل الضربة التالية، ولن أعترف.. وعلى العموم يا زملائى سنقوم معاً بتدريبات على قوة الإرادة والصلابة الروحية والنفسية.. أما نقطة الضعف الثانية فهى أنكم تنفقون ببذخ فى شارع الهرم فيتم التقاط صور فوتوغرافية لكم وتذهب لرجال المباحث، فيقبضون عليكم ويضربونكم فتنهارون وتعترفون.. ما هو العلاج لذلك؟

زوجتى : أنا حرامى

مازلنا نجلس مع الأستاذ (ل.م) فى غرفة ضابط المباحث قبل ترحيله إلى النيابة، وواصل هو إعترافاته لنا. الغريب فى الأمر أنه كان يتكلم بانطلاق وصراحة، بل إنه وافق بحماس عندما طلبنا منه أن نستخدم جهاز التسجيل، ونحن بدورنا احترمنا فيه هذه الشهامة ولم نطلع أى مخلوق على تسجيلاته واعترافاته، وبهذه المناسبة نود أن ننبه القارئ إلى أن كل الأسماء الواردة فى هذه الحكاية ليست حقيقية، كما أن بعض الأحداث تم تحريفها قليلا لإخفاء الملامح الحقيقية لشخصيات أبطالها. واصل الأستاذ حديثه: لقد تعودت طوال حياتى الأكاديمية على التنظيم العلمى، إن جهود البشر تضيع هباء فى غياب التنظيم العلمى،

لذلك انتهزت فرصة الشهور التى سأقضيها فى السجن فى إعادة تأهيل زملائى وتحويلهم من لصوص أفراد مبعثرين إلى مجموعة متحدة قوية تعمل فى إطار تنظيمى عالى الكفاءة. هذا العصر الحديث لا مكان فيه للصوص الهواة، لا مكان فيه لحرامى الغسيل أو حرامى الحلة، هذا عصر الجريمة المنظمة، وعلى من يعمل مجرما أن يكون عصريا أيضا وبذلك تتاح له أكبر فرصة للإفلات من رجال الأمن، بدأت أبث فيهم روح التسامح والحب وأدفعهم للتمسك بروح الجماعة، تحت شعارات مثل ما استحق أن يولد من سرق لنفسه فقط، كما استخدمت حِكماً شعبية من نوع، اللى يسرق لوحده يزور، فى الشرف الندامة وفى السرقة السلامة.. إلخ، كان لديهم شعار واحد هو "السجن للجدعان" وهو شعار خطير وكاذب ومضلل يهدم عالم اللصوصية من أساسه، قلت لهم فى إحدى محاضراتى: أيها السادة، السجن ليس للجدعان، هذه مقولة قديمة سخيفة وحكمة بلهاء قالها حرامى خائب وعبيط، السجن ليس للجدعان فاللص الحقيقى لا يكون جدعا عندما يدخل السجن، بل حمار لأنه ترك خلفه الأدلة التى أدت للقبض عليه. هناك ألف طريقة للإفلات، أبسطها أن تأتى لنفسك بشهادة وفاة لا تكلفك أكثر من خمسة جنيهات، أو أن تحترق الملفات ومن بينها ملف قضيتك فى المحكمة، أما الشهود فيمكن تهديدهم لمنعهم من الشهادة، الجدع الحقيقى هو الذى

يسرق بجدعنة ويظل حراً يستمتع بما سرق، إننى أعدكم يا أصدقائى بألا يدخل أحد منكم السجن بشرط الالتزام بكل التعليمات التى سنتفق عليها.

أيها السادة، لقد شاء القدر أن نعمل فى هذه المهنة وعلينا أن نتقنها، ولكنى أحذركم من شئ واحد، العنف، نحن لصوص إنسانيون ولسنا قطاع طرق، كل عملياتنا لابد أن تكون نظيفة تماما، فالعنف يدل على انهيار الحرفة والغباء وأنتم جميعا والحمد لله خبراء أذكياء.

صمت الاستاذ للحظات ليشعل سيجارة بولاعته الذهبية ثم مضى يقول: بدأت بعمل حصر للكفاءات الموجودة، استبعدت منها المختلسين والمرتشين ولصوص المال العام لأن الخيانة تجرى فى عروقهم بالإضافة إلى أنهم يشعرون بتعال لا مبرر له على اللصوص العاديين، بعد ذلك قمت بتقسيم الموجودين إلى مجموعات من حيث التخصص، لحسن الحظ كان معنا المزور العالمى الشهير "ف. ح" الذى تروى عنه الأساطير، كان قادراً على رسم الورقة ذات العشرين جنيها مستخدما الفرشاة وعلبة ألوان ماء فقط. يقال أنه رسم عدة ورقات من هذا النوع على رخامة طاولة فى مطعم شهير وأشار عليها إلى الجارسون وانصرف، ويقال إنه تمكن من تزوير ختم الأمم المتحدة على وثيقة هامة ترتب عليها استقلال بلد إفريقى. كما زوّر قراراً من النيابة

بالأفـ اج عنه، وزور قـراراً آخـر بنقل أحـد الضـبـاط من سـجن القناطر إلى سجن قنا. وعلى سبيل الدعابة زوَّر وثيقة زواج لأحد المحتـالين من نجمة سينمائية شـهيرة فطلبها المحتـال فى بيت الطاعـة، وعندمـا تعـقـد الموقف زوَّر وثيـقـة طلاقـهـا منه. وانتـهت القضية عند هذا الحد منعا للشوشرة. اتفقت معه أن يتولى إعداد كل الوثائق المزوَّرة المطلوبة مـقـابل نسـبـة ضـئـيلة من الدخل الشـهرى لكل عملياتنا. وعلى فكرة اللصوص لا يعرفون الأوراق والعقود والإيصالات، بل يتعاملون بالكلمة.

بدأت بعد ذلك فى إعطائهم نصـائح عـامـة، ممنوع منعـا باتا ارتداء مـلابس فـقـيرة، لابد من أعلى درجـات الشـيـاكـة، ممنوع التـردد على المقـاهى أو الأمـاكن التى يرتادها اللصـوص أو المشبوهون. ممنوع الحديث بطريقة جافة أو سـوقية، تكلم بتهذيب ورقة، كل المقابلات لابد أن تتم فى أرقى الأوتيلات والمطاعم، كما بذلت مـجـهوداً كـبيـراً فى تدريبـهم على النطق الصحـيح لبـعض الجمل باللغة الإنجليزية والفرنسية. ممنوع منعا باتا حمل سلاح من أى نوع، إن مـهمتنا هـى سـرقـة المواطنين وليس ترويعـهم، لقد جاء الوقت الذى نعيد فيه للصوصية وجهها المشرق الجميل.

أفرج عن عبـده بومبة فى البداية ثم أفرج عنى بعـده بشـهر، وجـدته فى انتظارى على باب السـجن، لم يكن هو عـبـده الذى تعـرفت عليـه فى السـجن، كان شـخصـا آخر اسـمه إبراهيم بك

الكردستانى، تاجر السيارات الشهير، كان يركب سيارة فخمة يقودها شاب فى ثياب أنيقة، اكتشفت أنه أحمد نار النشال، كانت زوجتى أيضا فى انتظارى فقام بتوصيلنا إلى البيت ثم اعتذر عن الصعود معنا لأنه مرتبط بمواعيد، أعطانى مظروفا منتفخا وورقة بها أرقام تليفوناته، يالك من شخص كريم يا عبده، تصوروا لقد سرق هذه السيارة الزلكة الفخمة قبل الإفراج عنى بساعتين لتوصيلى بها. بعد أن صعدنا إلى الشقة فتحت المظروف فوجدت به خمسة آلاف جنيه، أعطيت زوجتى أربعة آلاف ووضعت الألف الباقية فى جيبى سألتنى زوجتى: من هذا الرجل؟

- هو تاجر سيارات، كان معى فى السجن، كان متهما بالتهرب من الجمارك، اتهموه بأنه أدخل مائة سيارة بدون جمارك ثم اتضحت براءته.

- ولماذا أعطاك هذا المبلغ؟

- الناس لبعضها، هو يعرف أن ظروفى سيئة، سأردها له فى أول فرصة.

- أخشى أن هذا الرجل يريد أن يورطك فى شئ.

الرجل الأبله وحده هو الذى يخفى عن زوجته حقيقة ما يفكر فيه وما يفعله، فالزوجات عندهن حاسة سادسة قوية قادرة على الوصول إلى أعمق أعماق الزوج، من المؤكد أن زوجتى ستكتشف

تغييرا كبيرا قد طرأ على سلوكى، وقد تتصور أن لى علاقة بأخرى، وهنا قد يدفعها الشك إلى متابعتى فتتسبب فى إفشال مخططاتى لذلك قررت في تلك اللحظة أن أصارحها بأننى قررت تغيير مهنتى فقلت لها: حبيبتى، أريد أن أصارحك بشئ، سأعرض عليك فكرة أرجو أن تفكرى فيها بهدوء وعقل بارد وبموضوعية، أن مهنة أستاذ فى الجامعة لم تعد تصلح لى، بمعنى أصح لم أعد أصلح لها، لا توجد جامعة فى المنطقة ترحب بتعيين أستاذ سبق أن سجن فى قضية سياسية، لذلك قررت أن أشتغل فى الأعمال الحرة.

– ما هو نوع ذلك العمل الحر، تجارة السيارات؟

– لا.. لأكن صريحا معك لأبعد الحدود.. لقد قررت أن أكون لصاً.

– ماذا تقصد؟

– أقصد ما قلته بالضبط.. عاوز أشتغل حرامى..

– هل تقصد أنك ستسرق الكتب والأفكار، وتعطى الطلبة دروساً خصوصية، أو تسرق منصبا..

– لا.. أريد أن أكون لصا واضحا.. وأريد أن أتخصص فى سرقة الشقق الفاخرة.

نظرت إلىّ بفزع، واضح أنها تصورت أن السجن قد أصابني بالجنون، فلما قلت لها أنني واع تماما لما أقول وإنني مقدر لكل عواقبه أغمى عليها.

زوجتي تعمل في وظيفة محترمة بإحدى الوزارات وهي من أسرة طيبة كل أفرادها يحتلون مناصب محترمة. كان أبوها رحمه الله يعمل مديراً عاما في مجلس أحد الأحياء، وكان رجلا طيبا لا يدخن ولا يسهر خارج البيت. وتمكن بمرتبه البسيط من تربية أولاده تربية حسنة.

زوجته حماتي كانت أيضا سيدة كريمة ومدبرة، لم يكن ينفق كل مرتبه، بل كان يدخر منه جزءاً صغيراً كل شهر، مكنه من شراء أرض في الاسماعيلية وشقة في الاسكندرية، وعمارة في مدينة نصر، وسيارة لكل واحد من أولاده، بالإضافة لمزرعتين في الشرقية وشاليه في مراقيا وڤيللا في العريش، كانت سمعته في بياض اللبن الحليب، وحتى عندما ثارت ضده بعض الأقاويل قدم استقالته على الفور وتفرغ لإدارة أملاكه.

وبعد وفاته تمكن أخوة زوجتي وأعمامها بحيل كثيرة من تجريدها من الميراث بدعوى أن زوجها الذي هو أنا يكسب كثيرا من الدروس الخصوصية، الواقع أنني كنت في ذلك الوقت أعطي دروساً لبعض الطلبة، ولكني لم أكن أكسب كثيراً، فقد كنت أفعل

ذلك بدافع من حب العلم. إننى أعطيكم هذه الخلفية عن زوجتى لكى تدركوا مدى وقع المفاجأة عليها. لقد تربت فى بيئة شريفة بكل معانى الكلمة وها هى الآن تفاجأ بزوجها يريد أن يكون لصاً.

أفاقت بعد لحظات ثم قالت لى: هل أنت فعلاً جاد فيما تقول؟

- نعم.

- من الواضح أن الشهور التى قضيتها فى السجن قد أثرت عليك.. وأنا اقترح عليك أن تحجز الليلة عند طبيب أمراض نفسية وعصبية.

- أعرف أنك تقصدين الدكتور أحمد قريبك، أؤكد لك إننى لو زرته فلن يحولنى إلى إنسان شريف عاقل، بل سأحوله أنا إلى لص فاستعداده لذلك كبيرٌ جداً..

وهنا رددت فى عصبية تكاد تبلغ حد الصراخ: ولكن لماذا..؟.. لماذا.. لماذا؟

- لماذا.. ماذا؟

- لماذا تريد أن تكون لصاً؟

- هل تظنين أننى أريد أن أكون لصاً على سبيل الهواية، أو تطبيقاً لمبدأ فلسفى اعتنقته حديثاً، أريد أن أكون لصاً لأحصل

على فلوس كثيرة.. كثيرة جداً.

- أليست هناك طريقة أخرى للحصول على فلوس كثيرة؟

- لابد أن هناك طرقا أخرى، أن أحصل على جائزة نوبل مثلا، أو أن أعثر على حقيبة بها عدة ملايين من الجنيهات نسيها أحد الناس فى تاكسى أو تموت عمتى الغنية فى استراليا فأرثها، علماً بأن هذا يحدث فى المسرحيات فقط، وحتى إذا كان يحدث فى الحياة فليست لى عمة غنية فى استراليا أو أية قارة أخرى، المسألة ببساطة ياعزيزتى أننى أريد أن أستمتع وتستمتعين معى بالحياة إلى أقصى حد.

- هل تعتقد أننى أستطيع مواجهة الناس عندما يعرفون أن زوجى لص؟

عندما وجهت لى زوجتى هذا السؤال عرفت إننى على الطريق الصحيح، هى لا ترفض من ناحية المبدأ أن أكون لصاً، هى فقط ترفض أن يعرف الناس ذلك، وهذا هو معنى الشرف عند قطاع عريض من البشر، ليس مهما أن تكون لصاً، المهم ألا يعرف الناس ذلك.

- يا حبيبتى، كيف ستعرف الناس إننى لص؟ هل تتصورين إننى سأقوم بالإعلان عن مهنتى، هل تتصورين إننى سأنشر إعلانا فى الصحف أقول فيه إن فلان الفلانى قرر أن يعمل لصاً

وعلى المعترض أن يتقدم خلال ١٥ يوماً.

– ستعرف ذلك عندما يتم القبض عليك؟

– وهل كل اللصوص يقبض عليهم يا حبيبتى؟ البلهاء فقط، والذين يعملون على غير أساس علمى، أنا شخص مختلف.

– لنفرض أنه بالرغم من كل ذكائك وكل حذرك وقعت فى قبضة رجال الشرطة، ماذا أفعل أنا وليس عندى مليم واحد أنفقه على المحامين؟

– هذه مشكلة حقيقية يمكن حلها بتخصيص ميزانية لذلك.. نسبة من حصيلة المسروقات مثلا .. أقصد من حصيلة الدخل.

وهناك قالت فى حزم: إسمع، لست أوافق على كل ما تقول، وفى حالة إصرارك عليه من فضلك طلقنى بهدوء. وأقسم لك بأننى لن أبوح بسرك لجنس مخلوق، بل لن يعرف أحد أننى قد طُلقت منك، سنظل اصدقاء .. أننى كزوجة أرفض مهنتك الجديدة، ولكنى كصديقة ملتزمة بالوقوف إلى جوارك إلى أن تسترد عقلك وكصديقة مخلصة، أقول لك، هذه المهنة تتطلب لياقة بدنية فائقة، لابد أن تفقد الكثير من وزنك، وأن تمارس الرياضة كل يوم، فالأمر قد يستلزم تسلق مواسير والقفز من سطوح لسطوح، كما يجب أن تمتنع نهائياً عن التدخين لكى تكتسب القدرة على الجرى السريع فى حالة المفاجآت.. أمر آخر أريد أن يكون واضحاً لديك،

لا تتوقع منى أى مساعدة فى معرفة الشقق التى ستسرقها، لن أقول لك مثلا إبدأ بشقة صديقتى فوقية زوجة جلال بيه التى يحتفظ بنقدية كبيرة فى دولاب غرفة النوم كما لا تنتظر منى أن أفشى لك سر صديقتى عديلة التى تحتفظ بمصوغاتها فى درج الكوميدينو.. لا.. لن يحدث ذلك.

وهنا ضحك الأستاذ هو يشعل سيجارة ومضى يقول: الرجل الشرقى حتى لو كان لصاً يرفض أن تتعرض زوجته للبهدلة، لذلك قمت بتطليقها فى نفس الليلة، وقضينا سهرة ممتعة بعد أن تحولت لصديقة، ولذلك عندما قبض علىَّ واستدعتها المباحث أخرجت لهم على الفور وثيقة الطلاق من الحقيبة وأخذت تشتمنى شتيمة مقذعة، أما رصيدها الكبير فى البنك فقد أوضحت أنها ورثته عن والدها، والمصوغات ورثتها عن والدتها.

وسألناه: ولكن الشرطة لديها أوصاف دقيقة للمصوغات المسروقة.

فأجاب بابتسامة: هناك بعض الشقق التى كنا نسرقها أصحابها لم يبلغوا عن سرقتها، كيف يبلغ شخص مرتبه ٢٠٠ جنيه شهريا عن سرقة ربع مليون جنيه ومصوغات ثمنها ربع آخر.. إحنا برضه لينا نظرة فى اللى بنسرقهم.

عرفنا فيما بعد أن الأستاذ (ل. م) أنكر فى النيابة كل

اعترافاته في محاضر الشرطة التي أقر فيها بأنه سرق ١٧٥ شقة وذكر فيها بالتفاصيل المسروقات وعناوين كل الشقق ومواقعها بالضبط وأضاف: يا سعادة الباشا.. أية ذاكرة بشرية هذه التي تحتفظ بعناوين ١٧٥ شقة سرقتها كما يزعم رجال المباحث، وأية ذاكرة بشرية قادرة على الاحتفاظ بوصف المسروقات من ١٧٥ شقة، لقد وقّعت على هذه المحاضر خوفاً من التعذيب، هذه تهمة لفقها لي خصومي السياسيون. أنظر إلى وجهي جيداً يا سيدي.. هل تصدق أنني لص؟

لا نعرف بماذا أجاب وكيل النيابة، ولا نعرف ماذا كان مصيره فقد انشغلنا بعد ذلك بدراسة جرائم أكثر طرافة.

عضوية الفريق القومي

ليس لدى أسرار فى حياتى فقد تعودت أن أحكى للقارئ كل مايحدث لى.. وأنا لست من أنصار اختراع الحكايات والحواديت أو تخيل أشياء لم تحدث ومع ذلك يتصور بعض القراء أن ما أكتبه مجرد خيال لا صلة له بالواقع، بل يدخلونه أحيانا فى دائرة اللامعقول.وأنا لا أطالب أحدا بتصديق ما أكتبه، يكفينى أن أكون صادقا.. كان لابد من هذه المقدمة قبل أن أحكى لك قصة انضمامى للفريق القومى لكرة القدم.

فى العشرين من عمرى، منذ سبعة وثلاثين عاما، كنت لاعبا فى فريق نادى الترسانة لكرة القدم وكان الكثيرون يتنبأون لى بمستقبل كبير.. لم أكن أسهر أو أدخن وكنت أحرص على حضور مواعيد التمرين بانتظام.، أما فى المباريات فلم يحدث أن أهملت أو تكاسلت أو لعبت لعبة خاطئة.. كل تصويباتى كانت محسوبة بالبرجل والمسطرة.. وكانت درجة كفاءتى فى السيطرة على كرة القدم والتحكم فيها عالية لدرجة أنه قيل عنى أننى

نادى الكرة فتسمعنى وتأتى متمسحة فى قدمى وكأنها قطة أليفة.

وذات يوم استدعانى رئيس النادى إلى مكتبه حيث وجدت فى انتظارى الكابتن هادى المدرب المسئول عن فريقنا القومى فى ذلك الوقت.. استقبلنى الرجل مرحبا وقال لى: ياكابتن على..أنا معجب بانضباطك وبطريقتك فى اللعب، لقد راقبتك طول الموسم الماضى وتابعت مبارياتك فى هذا الموسم، ووجدت أنه لابد أن أضمك للفريق القومى..

شعرت بسعادة مفاجئة تغمرنى، أخيرا سألعب مع الفرق الأجنبية، ومن يدرى، أليس من الجائز أن يشترينى ناد أوروبى كبير بعدة ملايين من الدولارات، وأتحول إلى نجم على مستوى الكرة الأرضية. إن الاحتكاك بالفرق الأوروبية يوفر للاعب درجة عالية من الخبرة والكفاءة ويفجر إبداعاته، ومضى الكابتن هادى يقول: نحن الآن بصدد تكوين فريق قومى جديد، كل عناصره من العناصر الشابة الجديدة، يتم اختيارهم من بين اللاعبين المتازين المجهولين، وذلك استعدادا لمباريات كأس العالم القادمة، وطبعا نحن نفكر على مهل ونتحرك بتؤدة لتكوين فريق عالمى بكل المقاييس، فريق يرفع رأس مصر عاليا ويدافع عن سمعة الكرة المصرية.

سألته : ومتى يعلن أسماء الفريق، ومتى تبدأ التمرينات ومتى نلعب أولى مبارياتنا التجريبية أو الودية؟

أجاب: قريبا، بمجرد الانتهاء من تخصيص ميزانية، لابد من الحصول على موافقات من جهات عديدة، إن الفريق كما تعلم ليس تابعا لناد معين بحيث يسهل اتخاذ القرار بشأنه ولكنه تابع لمصر كلها وهذا يتطلب إجراءات مالية وإدارية وسياسية على مستويات عليا لابد من الانتهاء منها قبل الاعلان عن تشكيل الفريق.. عندما ننتهى من هذه الإجراءات سأتصل بك.

شكرته لثقته بى وانصرفت إلى منزلى وأنا أكاد أطير من الفرحة.

ولكن الموافقات تأخرت، وسارت الإجراءات فى حوارى سد، وكل عدة أيام أو عدة أسابيع كنت أتصل بالكابتن هادى تليفونيا أسأله عن موعد إعلان تشكيل الفريق فكان يرد على: لسه شوية.. ربنا يسهل.

ومرت الأيام والشهور والسنون، نشبت حروب، هبت عواصف الاشتراكية والتأميمات، فتحت المعتقلات أفواهها وابتلعت عشرات الآلاف من البشر بلاسبب مفهوم، ثم فتحت أفواهها مرة أخرى وتقيأتهم لأسباب غير مفهومة أيضا، حدثت الانغلاقات ثم الانفتاحات، فتبدلت وجوه وتغيرت حكومات، ولكن كل ذلك لم

يمنعني من الاتصال بطريقة شبه منتظمة بالكابتن هادى تليفونيا: أخبار الموافقات إيه؟أخبار الإجراءات إيه؟ الفريق القومى حايتشكل إمتى؟

فكان يجيبنى بهدوئه المعروف: لسه شوية..ربنا يسهل..هانت..

ومنذ ثلاثة شهور فقط، بعد مرور سبعة وثلاثين عاما بالتمام والكمال فوجئت بالكابتن هادى يتصل بى تليفونيا ويقول لى بفرحة طاغية:خلاص ياسيدى.. خدنا الموافقات.. انتهينا من كل الإجراءات.. خصصوا لنا ميزانية ضخمة لم نكن نحلم بها.. ولكن أرجوك لا تبلغ أحدا بذلك.. سنعمل فى سرية مطلقة لكى نفاجئ العالم بالفريق..

أجبته: لابد أنك تمزح ياكابتن هادى.. أنا الآن فى السابعة والخمسين من عمرى ووزنى تعدى المائة كيلو جرام ، واعتزلت كرة القدم منذ زمن بعيد، وأشك أننى أستطيع الجرى لمدة دقيقة واحدة.

فقال: ياراجل.. ده انت الخير والبركة.. عموما الكلام فى التليفون مش حاينفع.. فيه اجتماع للفريق الليلة دى فى فندق ماريوت.سنتناول طعام العشاء، ثم نتحدث عن خطة العمل الاستراتيجية للفريق.

فى قاعة من قاعات الفندق اجتمع أعضاء الفريق، كنا جميعا

قد تجاوزنا الخمسين من أعمارنا، بل أن بعضنا تجاوز الستين، أما الكابتن هادى فقد تخطى السبعين.. أخذنا نتحدث عن ذكريات الماضى الجميل ونحن نتناول طعام العشاء وأخيرا بدأ الحديث عن خطة التمرين وخطة اللعب، ومركز كل لاعب.

فنهضت واقفا فى مكانى وقلت بصوت مرتفع: إسمح لى ياكابتن هادى.. عندي كلمة،أولا نحن نشكرك بحرارة لإصرارك ونضالك طوال هذه الأعوام للحصول على الموافقات والميزانيات والانتهاء من إجراءات الفريق القومى، فقد أثبت بذلك أن طولة العمر تبلّغ الأمل، كما أثبت أنه لايضيع حق وراءه مطالب.. كما نشكرك لأنك دعوتنا الليلة لهذا العشاء الفاخر فقد أتحت لنا الفرصة لكى نسعد برؤية بعضنا البعض بعد مرور سنوات طويلة، ولكن اسمح لى أن أنبهك لحقيقة هامة هى بالقطع لم تغب عن بالك، وهى الحقيقة التى أعتقد أن زملائى جميعا متنبهون إليها.. ياكابتن هادى.. نحن عاجزون عن لعب كرة القدم، بل من المؤكد أننا عاجزون عن لعب أى لعبة فيما عدا الطاولة والكوتشينة والدومنو..

وهنا صاح واحد من زملائى ساخطا: تكلم عن نفسك.. إذا كنت أنت عاجز عن اللعب فليس معنى ذلك أننا عاجزون مثلك.

وهنا ارتفعت أصوات بقية الزملاء: نعم.نعم.. إذا كنت ترى

أنك عاجز وضعيف فلا داعي لاشتراكك في الفريق.. كما أنه لاداعي للإهانات، من الأفضل أن تنتبه لكلماتك..

نحن مكلفون بمهمة سامية هي الحفاظ على سمعة كرة القدم في مصر.. ونحن قادرون على ذلك، فلاداعي للتشكيك وإحباط الهمم.

ارتفع صوت الكابتن هادي قائلا: ياجماعة نحن أسرة واحدة.. ولابد أن نمارس الديموقراطية فيما بيننا.. إن الآراء المختلفة ستوصلنا إلى النتيجة المرجوة.. بالمنطق وحده نقنع بعضنا البعض بصحة قضايانا..دعوه يعبر عن وجهة نظره، بالتأكيد هو على حق في بعض آرائه.. ومخطئ في بعضها الآخر، وعلينا أن نناقشه في هدوء بعيدا عن العصبية.. اتفضل ياكابتن علي.. إشرح لنا لماذا أنتم عاجزون عن اللعب.

استعددت لمعركة كلامية جدلية طويلة من ذلك النوع الذي يمارسه المثقفون وقلت: أول عنصر ضدنا هو عنصر السن، لايوجد على الأرض لاعبون لكرة القدم في مثل أعمارنا..

وهنا قال الكابتن هادي بحماسة والابتسامة لاتفارق وجهه: هذه هي المعجزه التي سيحققها فريقنا القومي، سنقول للعالم كله إن التقدم في السن لا يضعفنا أو يوهن من عزيمتنا، بل يجعلنا أكثر قوة، وكما انفردنا في الماضي بحضارتنا التليدة، سننفرد

الآن بهذا الفريق المدهش..

ستثبت للعالم كله أن القوة البدنية لاأهمية لها بجوار الخبرة والحكمة.. الإنسان لايتقدم في الحياة بقوته البدنية ولكن بقوة عقله وخبرته وحكمته.. ولو كانت القوة العضلية هي العنصر الحاسم في التاريخ لكانت الثيران هي صاحبة أعظم الحضارات علي الأرض، لابد أن خبرتكم جميعا في كرة القدم قد أوصلتكم لنتيجة هامة هي أن الرغبة في النصر هي العنصر الحاسم في أية مباراة، وأنا أعتقد أنكم جميعا ممتلئون بالرغبة العارمة في النصر.

وهنا صاح زملائي: نعم ..نعم ..نعم.

كان مايحدث أمامي وحولي هو الجنون بعينه، يبدو أن الإنسان لايصدق أنه عاجز عن فعل شئ كان يفعله فيما سبق بنجاح، كل زملائي لا يدركون أنهم يحاولون الامساك بالمستحيل، والمستحيل هو الحصول على زمانهم وزمن غيرهم، أنا واثق أننا إذا نزلنا الآن أرض الملعب ولعبنا مع أي فريق من أي نوع فسنهزم هزيمة مروعة بل قد يموت بعضنا بأزمة قلبية، ولكن ماذا أفعل وزملائي يصيحون ويزأرون من الفرحة، فرحة عودتهم إلى الملاعب، ويكادون يفتكون بي لمجرد أنني ذكرتهم بأننا لم نعد نصلح لكرة القدم.. وأن الشئ الوحيد الذي نجيده هو مشاهدتها

فى التليفزيون فقط ونحن نائمون على السرير.

ولكن ماسر موقف الكابتن هادى؟ لقد حصل أخيرا على الموافقات والميزانيات، ولديه كل الصلاحيات والإمكانيات لعمل فريق جديد من الشباب، فريق قادرعلى الأقل على لعب كرة القدم، فلماذا لم يشطب أسماءنا القديمة بجرة قلم ويبدأ فى إعداد فريق جديد؟

الإجابة التى توصلت إليها فيما بعد هى: كل الموافقات والميزانيات مرتبطة بأسمائنا، أسماؤنا موجودة فى الأوراق، فى الكشوف، إنها الأسماء المعتمدة، الأسماء التى وافق عليها المسئولون، لذلك كان من المحتم أن يكون أصحاب هذه الأسماء هم أنفسهم الأعضاء الجدد للفريق القومى بغض النظر عن أعمارهم وقدراتهم.. هذا أمر مجنون تماما، أشبه بأن تأتى بممثلة عجوز وتسند إليها دور حبيبة البطل وهو الدور الذى كانت تلعبه من سبعين عاما.

وتطمئن نفسك بأن الماكياج سيصلح ما أفسده الزمن .. ولكن ماذا نفعل؟! هذه هى اللوائح ، ولكن لابد من الوقوف فى وجه هذا الجنون، رفعت يدى مرة أخرى طالبا الكلمة : ياكابتن هادى.

- نعم.. هل تريد أن تقول شيئا آخر..؟

- نعم.. التدريب..

- أنت على حق فعلا فى ذلك.. نعم، ينقصكم التدريب.. ولماذا اجتمعنا هنا إذن؟! ستبدأون تدريبا منظما وشاقا بإشراف أعظم المدربين والأطباء والمدلكين وخبراء رفع الروح المعنوية، ستقيمون فى معسكر وسط أوروبا فى منطقة تحوطها الجبال والخضرة والماء والوجوه الحسنة، وستحصلون على مكافآت تدريب وبدل سفر ومصروف جيب يعيد لكم شبابكم.. ياكابتن على، لقد قال إحسان عبدالقدوس أن العمر لا يحسب بالسنين.. ولكن بالشعور، فقد تكون شابا فى العشرين وتشعر بأنك عجوز فى الستين، وقد تكون عجوزا فى التسعين وتشعر بأنك شاب فى العشرين.. هل تعتقد أن المرحوم احسان عبدالقدوس كان مخطئا أو كان يكذب؟!

- حاشا لله.. لأطبعا..

- خلاص. .هل لديك وجهة نظر أخرى؟

- نعم.. أوزاننا زائدة جدا عن الحد المتعارف عليه..

- أوافقك على ذلك ، ولكن هذه النقطة أيضا تنبهنا لها وأدخلناها فى حساباتنا.. الفريق كله سيدخل مزرعة صحية " Health farm " ويخضع لريجيم خاص.. قادر على تحويلكم إلى غزلان رشيقة..

وهنا تعالت صيحات الفرحة والاستحسان من زملائى.

ولكنى كنت قد قررت ألا أستسلم بسهولة ولذلك واصلت

محاولاتى لإيقاف هذا الجنون، واصلت الحوار: ياكابتن هادى إن الزمن هو الزائر الوحيد الذى يترك آثارا لايمكن محوها.. إذا كنا سنتخلص بسهولة من أوزاننا الزائدة، فماذا عن شعرنا الأبيض؟ألن يكون منظرنا مثيرا للسخرية فى الملعب؟

وهنا ضحك الكابتن هادي وأجابني بنفس الهدوء ونفس الابتسامة:هاها.وماذا تفعل الصبغة السوداء إذن؟..

هذه النقطة أيضا تنبهنا إليها وتم التعاقد مع أعظم الحلاقين فى أوروبا، سيأتى لكم بأحدث أنواع الصبغات التى أخرجتها المعامل فى العالم.. ليس هذا فقط.. أنت مثلا ياكابتن على، لن تستفيد كثيرا من الصبغة، لأنك أصلع.. هذه النقطة أيضا وضعناها فى الاعتبار، سنضع لك باروكة مربوطة فى رأسك بطريقة لا تجعلها تسقط لأى سبب من الأسباب.. هذا أمر هام جدا.. لأننا نعرف طبعا أنك تجيد ضرب الكرة بالرأس..

- كنت ياسيدى.. كنت.. كنت.. أجيد ضربات الرأس.

- وستكون.. وستكون.. وستكون.. سنجعلك تستعيد كل قدراتك.. اطمئن من هذه الناحية ..أوكد لك ياعزيزى أن جمهور المشجعين سيرى أمامه مجموعة من الشباب المتفجر بالحيوية والصحة والقوة والنشاط.. لا أحد من الجمهور سيطلع على شهادات ميلادكم.. ومع ذلك تنبهنا لهذه النقطة أيضا.. سأعطيك

الآن شهادة تثبت أنك من مواليد ١٩٧٠، هل يرضيك ذلك؟

مرة أخرى تعالت صيحات الحماسة والفرحة والاستحسان من زملائى.

ومضى الكابتن هادى يقول: ياكابتن على.. ليس أمامنا طريق آخر.. الموافقات والميزانيات صدرت طبقاً لأسمائكم أنتم ولا سبيل لتغيير ذلك.. نحن الآن جميعا فى خندق واحد.. وعلينا أن نثبت للجميع أننا قادرون على تحقيق نتائج لم يسبقنا إليها أحد.. أعترف أن الإجراءات قد طالت بعض الشئ، وأنه كان من الممكن أن نحقق نتائج أفضل لو أنهم وافقوا على تشكيل الفريق من خمسة وثلاثين عاماً، أو قبل ذلك.. ولكن ماباليد حيلة..

لقد وافقوا أخيرا.. فهل نهرب يا أبطال؟!هل ننسحب يارفاق؟!هل نعترف بعجزنا يازملاء؟!

صاحوا جميعا:لا. .لا.. لا.

عاد الكابتن هادى يقول بحماس: سنكون عند حسن ظنهم بنا.. وسنلعب، المهم أن نمتلئ بإرادة النصر..

صاح زملائى كالوحوش: نعم .. نعم .. بإرادة النصر..

نظرت لزملائى فوجدتهم يتفجرون بالحيوية والنشاط. لقد عادوا بالفعل شبابا، لدرجة أن العدوى سرت إلى منهم..بل وبدأت

أتبين أننى كنت مخطئا فى تحفظاتى.. وأنهم جميعا كانوا على حق..

وهنا ارتفع صوت الكابتن هادى يقول بحزم: ياكابتن على.. لقد استمعنا إليك بما فيه الكفاية.. وأثبتنا لك عن طريق النقاش الديموقراطى، أنك لست محقا فى مخاوفك .. ومع ذلك، نحن لا نريد إرغامك على شئ.. السؤال الآن هو هل توافق على الانضمام للفريق القومى؟

وجدت نفسى بلا وعى أجيبه بكل حماس: نعم.. نعم.. نعم..

وهنا قام زملائى يتصايحون ويرقصون ويقبلون بعضهم البعض ويقبلوننى..

وبدأ الكابتن هادى فى تنفيذ الخطة الموضوعة للفريق.

أصدر الكابتن هادى تصريحا للصحافة العالمية والمحلية قال فيه إن الفريق القومى الجديد سيكون مفاجأه للجميع. حاول الصحفيون أن يعرفوا منه أيه تفصيلات عن أسماء اللاعبين أو أماكن التدريب أو كيفية إعدادهم للمباريات العالمية غير أنه اكتفى بالقول:إنتظروا وشاهدوا واسمعوا وتعلموا.

فى سرية بالغة حصلنا على أجازات من أعمالنا لمدة سنة بدون مرتب، أما هؤلاء الذين كانوا قد خرجوا على المعاش فلم يحصلوا على أجازات بطبيعة الحال.

صدرت لنا الأوامر بالتجمع فى مطار القاهرة الدولى دون أن نعرف الجهة التى سنسافر إليها. لم نعرف وجهتنا إلا بعد إقلاع الطائرة بدقائق، وفى بلد أوروبى جميل، ليغفر لى القارى عدم ذكر اسمه تنفيذا لأوامر الكابتن هادى، فى وسط أوروبا، ركبنا أتوبيسا خاصا ذهب بنا إلى مزرعة صحية، وفى المزرعة مارسنا الرياضة الخفيفة والتزمنا بنظام قاس فى التغذية، أحسسنا معه بأننا على وشك الموت جوعا، ولذلك كان بعضنا يتسلل مساء ويقفز من فوق سور المزرعة ليأكل سراً سندوتش همبورجر أو طبق مكرونة، تمتعنا أيضا فى المزرعة بالتدليك اليومى وحمامات السونا المنعشة كما شربنا كمية كبيرة من المياه المعدنية من الآبار مباشرة، كانت هذه الأبار الغنية بالفيتامينات والأملاح المعدنية المفيدة، تبعد عدة كيلو مترات عن مكان الإقامة بحيث كان من الضرورى عندما نعطش أن نسير على الأقدام يوميا حوالى ثمانية كيلو مترات فساهم ذلك فى خفض أوزاننا واستعادة لياقتنا البدنية.

وفى المساء كان يتولانا خبراء علم النفس الرياضى، يلقون علينا المحاضرات الطويلة عن أهمية إرادة النصر، وأن الشباب هو شباب القلب وليس العضلات، وأن لاعبى الكرة العظماء اكتسبوا سمعتهم من تصويباتهم الحكيمة وليست القوية، هناك لاعبون كثيرون أحرزوا أهدافا صعبة بل مستحيلة بمجرد غمز

الكرة ببوز القدم أو لمسها بالكعب.. وهم واقفون فى أماكنهم ثابتون كالطود الشامخ.

والجرى ليس له أهمية فى الملعب فقد تجرى كالمجنون بالكرة بسرعة القاطرة من الجون للجون مخترقا خطوط الوسط والدفاع ولكنك بسبب اندفاع الشباب ورعونته قد تشوط فى الأوت أو تصطدم الكرة بالعارضة بسبب اللهوجة وعدم دقة التصويب الذى هو ثمرة الحكمة والخبرة الطويلة وحدها.. الجرى مطلوب ولكنه ليس مطلوباً فى حد ذاته ، هو مطلوب للوصول للجون، حسنا، قف فى مكانك المحدد لك بين دفاع الخصم وبالقرب من مرماه، لا تغير مكانك حتى لا تلخبط زملاءك، لا تتحرك، إثبت، وعندما تصلك الكرة وستصلك حتما شطها بكل خبرتك التى اكتسبتها عبر الستين عاما الماضية..

صوب فى اتجاه المقص، يكفى أن تغمز الكرة ببوز الجزمة، عند ذلك ستراها ويراها معك الآخرون من آلاف المشاهدين وهى داخلة الجون.

خط الوسط بطبيعته ليس مطلوبا منه الجرى أو بذل المجهود العنيف، خط الوسط ثابت فى مكانه، لا تسمح لمخلوق أن يفلت بالكرة، قف فى مكانك كالصخرة، كالسد المنيع، أُنظر بثبات فى عين اللاعب الخصم وهو يقترب منك، أنظرله نظرة غاضبة،

مهددة، قاتلة، أنظر له نظرة قاسية تدفع الرعب فى قلبه .

عند ذلك يرتبك ويعجز عن اللعب، في تلك اللحظة، مد قدمك وأنت ثابت فى مكانك وشتت الكرة، أو من الأفضل أن ترفعها لزميلك فى خط الهجوم لكى يحرز منها هدفا أكيدا.

هذه هى خطة الهجوم التي أطلب منكم تنفيذها وأنا واثق من أنكم ستنجحون فى تنفيذها بما لكم من خبرة طويلة تفتقر إليها بقية الفرق التى تتكون كلها من مجموعات من اللاعبين صغار السن عديمى الخبرة والتجارب. ولكن كرة القدم ليست هجوما فقط يا أصدقائى..بل هى دفاع أيضا ، وبالرغم من أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع إلا أنه يحدث أحيانا وفى أوقات نادرة، أن الفريق الخصم لسبب أو آخر قد يتمكن من اختراق دفاعكم..

ماذا تفعلون؟

بسيطة، إذا حدث ذلك لسبب من الأسباب فاحرصوا على الاحتفاظ بالهدوء والبرود وعدم الانفعال، قفوا أمام الجون كالسد العالى، أنظروا للاعبى الفريق الخصم باحتقار، هذا الاحتقار سيشعرهم ويذكرهم بحقيقتهم وهى أنهم شوية عيال يتطاولون على أسيادهم، وفى الوقت نفسه عليكم أن توجهوا لهم بعض الكلمات التى تهد حيلهم ولكن بصوت هامس حتى لا يتنبه الحكم لذلك: إبعد ياواد انت وهو.. سيب الكرة ياواد انت ياخايب.. رايح

فين؟.. إنت فاكرها سايبة؟! إجرى العب بعيد.

ولكن لنفرض، لنفرض جدلا وهذا فرض مستحيل، لنفرض أنهم تمكنوا من إحراز هدف فى مرماكم.. أو حتى عدة أهداف.. وإيه يعني .. ولايهمكم.. نحن ياسادة نلعب الرياضة من أجل الرياضة، وفى الرياضة هناك غالب ومغلوب.. والروح الرياضية تحتم أن نتقبل الهزيمة بنفس الروح التى نتقبل بها النصر، كل الفرق معرضة للمكسب والهزيمة، دلونى من فضلكم على فريق واحد لكرة القدم فى التاريخ كله لم ينهزم.. دلونى على تلك الشبكة التى لم تلمسها كرة القدم بعد..

المهم هو اللعب بإخلاص وتنفيذ خطة الهجوم والدفاع بكل فهم وكل دقة.. هل هناك أسئلة؟

لم تكن هناك أسئلة، الغريب أننى شعرت بالفعل بأن روحى المعنوية مرتفعة بشكل لم أشعر به من قبل حتى عندما كنت فى العشرين من عمرى، امتلأت أنا وزملائى بإحساس قوى بأننا قادرون على هزيمة ريال مدريد والبرازيل وايطاليا وألمانيا .. بل وأتخن تخين على وجه الأرض.. أذكر القارئ أن ذلك لم يمكن من قبيل الأوهام، لقد كان إحساسا صادقا قويا لا أثر فيه لخديعة الذات.

ثلاثة أسابيع قضيناها فى المزرعة الصحية، غادرناها بعدها

ونحن شباب بالفعل، كانت الباروكة السوداء التى ركبت لى ولبعض زملائى رائعة، نظرت فى المرآه فوجدتنى فى العشرينات، نظرت لزملائى فوجدتهم شبابا كذلك، لقد كان الكابتن هادى على حق فى خطته، كنا نمشى ونتحرك بخفة ورشاقة لدرجة أن فتيات كثيرات من ذلك البلد الأوروبى حاولن خطب ودنا ولكن أوامر الكابتن هادى كانت صارمة، لا علاقات خاصة.

اختفى الشعر الأبيض من فوق رؤوس زملائى وحل محله شعر أسود فاحم بفضل نوع رائع من الصبغة ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى القرية التى سنقوم فيها بالتمرين. بدأنا بالتمرينات السويدية الخفيفة، ثم بالجرى لعدة مئات من الأمتار ثم بتدريبات التحكم فى الكرة والتصويب، سارت الأمور على مايرام فيما عدا بعض حوادث فردية استثنائية بسيطة، واحد منا عاودته آلام العمود الفقرى بحيث عجز تماما عن الحركة فأرسل إلى المستشفى على الفور، واحد آخر أصيب بأزمة قلبية خفيفة فنصحه الطبيب بالراحة التامة وعندما تماثل للشفاء أمر الكابتن هادى بإعادته إلى مصر. كما أصيب ثالث بالتواء شديد فى كاحله وأصر على أن يواصل التدريبات إلى أن سقط على الأرض وعجز عن الوقوف فنقل الى المستشفى، اتضح أنه مصاب بكسر فى القدم وليس التواء كما كنا نظن، فوُضعت قدمه فى الجبس.

ومع ذلك فقد بقى منا صالحا للعب ١٥ لاعبا. تحدد موعد

المباراة الودية التجريبية بيننا وبين فريق نادى القرية التى نقيم بها.

اتفق الكابتن هادى مع عمدة القرية على أن يكون وقت المباراة ٣٠ دقيقة فقط على شوطين. كل شوط ربع ساعة.

ولعبنا، أنا شخصيا لعبت كما لم ألعب فى حياتى من قبل، وتحول زملائى إلى شياطين فى الملعب، مر الشوط الأول بسلام، تمكن حارس مرماهم من صد كل تصويباتنا عليه، بينما عجزوا هم عن الوصول لمرمانا بفضل دفاعنا الممتاز، ولكن فجأة وفي الخمس دقائق الأخيرة من الشوط الثانى حدث شئ غريب غير قابل للتفسير، استطاعوا أن يحرزوا فى مرمانا عشرين جون، نعم، عشرون هدفا فى خمس دقائق فقط.

ولكن تلك الهزيمة المروعة لم تفقدنا روح الكفاح والرجولة، وخرجنا من الملعب مرفوعى الرأس بين تشجيع الجماهير وصياحهم وتهليلهم. وفى المساء دخل علينا الكابتن هادى قاعة العشاء وهو يمسك بيده حجابا صغيرا وقال: أيها السادة.. طبعا أنتم تبحثون عن تفسير لما حدث.. هذا هو.

رفع يده عاليا بالحجاب ومضى يقول: إحنا معمول لنا عمل أيها السادة.. لقد وجدت هذا الحجاب مدفونا بجوار القائم الأيمن فى الجون.. لقد تمكن الفاعل من دفنه تحت سطح الأرض على

بعد عدة سنتيمترات وذلك فى الخمس دقائق الأخيرة.

وتنفسنا الصعداء، لقد هزمنا ليس لضعف فينا أو لقوة فيهم، ولكن لأن معمول لنا عمل.. لابد إذن من تعديل استراتجيتنا بحيث نواجه تكرار هذا الاحتمال.

ليس مهما أن تخسر معركتك، المهم أن تعرف لماذا خسرتها..

الحمد لله، لقد عرفنا سر هزيمتنا، فى المرات القادمة سنحرص على حراسة الجون لمنع وضع الأعمال العكسية السفلية، ومن المحتم أن نكلف بعض الإخصائيين بعمل حجاب لكل واحد من أعضاء الفريق نضمن به النصر فى المرات القادمة.

نحن مستمرون فى التدريبات الآن -خارج الزمان والمكان- فى سرية كاملة، وفى سرية أيضاً تم تكليف بعض المختصين بعمل الأحجبة المطلوبة، لا أحد على وجه الأرض قادر على هزيمة مجموعة من البشر امتلأت بإرادة النصر.

حواديت على سالم

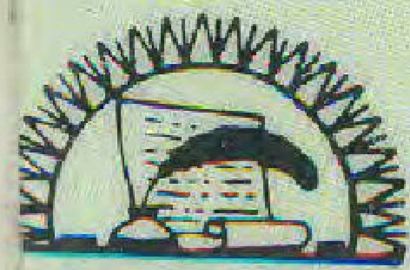
ليس مثلها حواديت ، إنها حواديت على سالم. وهى قادرة على أن تقدم لك عدة ساعات أو عدة أيام من البهجة كفيلة بأن تشعرك بقدر من الاسترخاء اللذيذ يساعدك على مواصلة السير بقوة فى طريق التوتر الذى نسير فيه جميعاً.

فالبهجة كما يرى المؤلف، تقوى أصحاب الضمائر وتبعد عنهم اليأس وتشعرهم بعذوبة الحياة وبأهميتها فيدافعون عنها بإصرار أكبر.

إن المؤلف فى هذا الكتاب يحول كل الظواهر السياسية والاجتماعية الضاغطة بقسوة على أعصاب الناس فى المنطقة العربية إلى مصدر للبهجة والفرحة، نفس الفرحة التى يشعر بها الطفل عندما يستمع إلى حدوتة ممتعة.

الناشـــر





مكتبة مدبولى الصغي
٤٥- البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين - القاهرة

DESIGN: KAMEL GRAPHICS